زياد أبو لبن

رائحة الزينكو

قصص

رائحة الزينكو

رائحة الزينكو

قصص قصيرة

زياد أبو لبن

2025

• رائحة الزينكو

(قصص قصيرة)

• زياد أبو لبن

• طبعة أولى 2025

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2025/8/4809)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: رائحة الزينكو
تأليف	: أبو لبن، زياد محمود أحمد
بيانات النشر	: عمان: زياد محمود أحمد أبو لبن، 2025
الوصف المادي	: 122 صفحة
رقم التصنيف	: 813.9282
الواصفات:	: /القصص العربية //أدب الأطفال// الأدب العربي//العصر الحديث/
الطبعة	: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• (ردمك): ISBN 978-9923-0-1946-7

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

أحد عشر كوكباً.. إلى أبي وأمّي ونحن التسعة

مفتتح

في أزقة ضيقة، وبين بيوت من صفيح وزينكو، تولد الحكايات كما يولد الخبز الساخن من رحم النار. هذه المجموعة ليست مجرد قصص عن الطحين والفلافل والحليب و.. ، ولا عن خيام تحولت إلى براكيات، بل عن شعب يعيش، يضحك، ويأكل، ويحلم... رغم كل شيء.

وبين صفوف المؤن وعيون الأطفال، تتشكل ذاكرة المكان، وكرامة لا تنكسر. هذه القصص تكتب المخيم... لا كألم، بل كحياة لا تزال تختمر على نار هادئة.

المفتاح لا يفتح هنا

لم أكن قد بلغتُ الخامسة حين بدأتُ أعي تفاصيل العالم من حولي. كانوا يقولون إن الذاكرة لا تستقرّ في رأس طفلٍ صغير، لكنني كنت أرى، وأخزّن، وأحتفظ بصورٍ لم تغادرني حتى الآن.

كنا نعيش في عين السلطان، مخيم صغيرة قرب أريحا، تُحيط به البيارات كالأساور، وتشقّه قناة ماء لا تنام. في ظهيرة الصيف، كان الماء يهمس وهو ينساب قرب حجارة قديمة، تمرّ فوقها أرجلٌ كثيرة، أكثرها حافية، وفي الركن القريب، كان قصر هشام، بقاياه على الأقل، بابه العالي المتهدّم، وحجارته التي تتكلّم بلغاتٍ لا أفهمها. كنتُ أظنّه بيتًا لملكٍ عاد في الليل ليختبئ من الناس، أو مأوى للريح التي كانت تعوي حين تهبّ من جهة النكبة.

كنا نلعب بين البيوت الطينية، نركض حفاة في الأزقة الضيقة، ونتسابق لقطف الموز من البيارات التي كانت تفوح بالحياة. وكان هناك مقهًى صغير، له رائحة البنّ والشاي المغلي، وله مقاعد

خشبية قصيرة يجلس عليها رجال صامتون، تتدلّى من شفاههم سجائر الهيشي الطويلة، ويحدّقون نحو الجبل كأنهم ينتظرون شيئًا لا يأتي.

أتذكّرهم، تلك العائلات المشردة بعد نكبة ١٩٤٨، الذين جاءوا بثيابٍ لا تشبهنا، ولهجةٍ كانت غريبة قليلًا، لكنهم ناموا على الأرض ذاتها، وسكنوا الخيام التي لفحتها شمس الأغوار القاسية. نساؤهم كنّ يبكين بصوتٍ خافت ليلاً، ورجالهم كانوا يجلسون تحت ظلال البيارات، يحدّقون في اللاشيء. لم أفهم وقتها معنى النكبة، لكني كنتُ أعرف أن هناك بيتًا ضاع، ومفتاحًا في جيب كلّ واحد منهم، لا يفتح شيئًا هنا.

أمّي كانت تقول لي: «احفظ المكان يا ولدي، فقد لا يبقى».

كنت أضحك، وأجري نحو الماء، أبلّ قدمي، وأرسم دوائر بأصابعي في الجدول. لم أكن أعرف أن المكان حقًّا قد لا يبقى، وأن الذاكرة وحدها ستحمل البيارات والماء والقصر والمقهى.. والمفتاح.

الآن، بعد كل تلك السنوات، أعود بعيني المغلقتين إلى هناك، أرى طفلًا في الخامسة، يركض في عين السلطان، يُسمّي الشجر بأسماء العائدين، ويضعُ وجهه على الأرض ليصغي إلى صمتها.. ويهمس: «لن أنسى».

النهر الخشبي

كان دويّ الطائرات لا يُخطئ أذني، يهزّ سماء أريحا ويعبر النهر الخشبي إلى الشرق، نحو ذلك المخيم الذي بدأ كأملٍ صغير اسمه «الشونة»، مقام على أرض الكرامة، تقيمه وكالة الغوث كما تقيم الأحلام المؤقتة على هيئة خيام.

لم تمضِ سنة... حتى جاءت الحرب.

صحوتُ ذات صباحٍ على ضجيجٍ غير مألوف، رأيتُ الرجال يركضون، والنساء يجمعن ما تبقّى من الخبز. كانت صور الجنود الأردنيين تملأ الجدران الطينية، يقفون بجوار دباباتهم، عيونهم تلمع بنار لا أفهمها، وكانت المقاومة الشعبية ترفع راياتها وتكتب على الجدران بشعارٍ واحد: «استعادة الأرض المحتلة».

لكن الأرض لم تُستعد، بل ازداد البعد.

جاءنا الرحيل مرّة أخرى، وهذه المرة لم يكن في اتجاه النهر، بل

نحو الصحراء. خيامٌ جديدة نُصبت، لكن الأمل لم يُنصب معها. حرّ الصيف كان يلفح وجوهنا حتى يتشقّق الجلد، والعقارب والحيات والسحالي صارت تزحف ليلًا نحو أجسادنا النائمة، تبحث عن برودة داخل خيامٍ لا تقي حرًا ولا تحفظ كرامة.

كبرتُ هناك، بين خيام النازحين، أعدّ نهارات العطش، وأراقب السواد يلف المكان كل مساء. لم تكن الظلمة فقط من غياب الكهرباء، بل من الحزن المتراكم في صدور الناس.

كان الجوع يعضّ على أنيابه مثل وحش ينتظر، والعطش يشقّ فم المخيم كجرح قديم لا يندمل. كل شيء كان مؤقتًا: الخيمة، والماء، والحياة إلا الحنين.. كان دائمًا.

بطاقة الجوع

في كل صباح، كنّا نصحو على صوتٍ لا يشبه زقزقة العصافير، بل نداءٍ جاف يخرج من مكبر الصوت عند مطعم وكالة الغوث، يعلن عن بدء توزيع الوجبة اليومية.

لم يكن ذلك المطعم مطعمًا كما نعرفه. لا طاولات، لا قوائم طعام، فقط طابور طويل، طويل جدًا، نقف فيه حاملين بطاقات الجوع، كأنها جوازات سفر نحو يوم قابل للحياة.

كانوا يعطوننا نصف تفاحة، أو برتقالة صغيرة مقسومة على طفلين، أو قرن موز قد بدأ بالاصفرار، وملوخية تسبح في قدر كبير، تغلي وتغلي كأنها تنتظر أن تصبح وجبة.. لكنها لا تصبح. وكان هناك أيضًا أرز أبيض، ناصع كبياض الظهر، يخطف بياض النهار لكن لا يسدّ الجوع.

هكذا كنا نعيش، سكان المخيم، ننتظر قوت يوم يوهمنا بأننا

بخير، ونبتسم لطفلنا إذا بكى، لا لشيء، فقط كي لا يبكي أكثر.

في الزقاق الضيق، كنا نركض حفاة، نلهو بأقدام ملأى بالغبار، وثيابنا مرقّعة بخيوط مختلفة الألوان، نرقّعها كما نرقّع ذاكرتنا، كي لا تنسى البلاد التي جئنا منها.

كنا نضحك أحيانًا، ليس لأننا سعداء، بل لأن الضحك هو الشيء الوحيد الذي لم يُصادَرنَا بعد.

ننام على حلمٍ بعيد، بعيد جدًا، يزورنا أحيانًا في المنام: بيتٌ بحائط حجري، وسطح فيه شجرة زيتون، وأمّ تُحضّر لنا الفطور بيدين لا ترتجفان من الطابور.

الوطن لم يعد مكانًا نعرفه، بل حلم الضائعين، نحمله في جيوبنا كأغنية مكسورة، أو كصورة يتلاشى لونها، لكنها تظلّ تدق القلب.

حكايات الدُوم

لم يكن في بيتنا ما يُسلي أو يُفرِح أو يُنسي الجوع والشتاء.. لا تلفاز، لا ألعاب، لا كهرباء تُضيء ليل المخيم.

كان كل ما نملكه حكايات الجدات والأمهات، عالمٌ سحريّ يفتح بابه كل مساء، ليحملنا خارج حدود المخيم، إلى أراضٍ لا تُقصف، وبيوت لا تخرّ من المطر.

كانت أمّي تجلس على الأرض، تُمسك بإحدى ضفيرتيها وتبدأ بصوتٍ خافت يشبه النسيم: «كان يا مكان، في قديم الزمان...»

فنصمت نحن، ونتحلّق حولها كأننا في مسرحٍ من خيال.

«جبينه راحت ع الدُوم»، كانت أولى الحكايات.. لا ندري من «جبينه»، ولا ما هو الدُوم، لكن الاسم وحده يكفي ليجعل عيوننا تتسع من الدهشة.

ثم تحكي عن (أبو رجل مسلوخة) الذي يخرج من تحت الأرض، وعن العفاريت التي تسكن الآبار، وعن الغول الذي لا

يُهزم إلا بالحيلة.

كنا نصدق كل شيء؛ لأن كل شيء خارج الحكاية كان أصعب من التصديق.

في الصباح، كان أبي يخرج والفجر، يحمل معوله ويضرب الحجارة بقوة، يتصبب عرقًا في صمت، ويعود في المساء، عيناه مطفأتان، كتفاه تهويان من التعب، لكنه لا ينسى أن يحمل ربطة خبز، وكيس خضار، وبطيخة كبيرة نشمّ رائحتها من بعيد ونحن نركض نحوه كأننا نركض نحو الفرح.

كانت عمّان، تلك المدينة التي يسمّونها العاصمة، حُلم الصغار. كنا نسمع عنها من الجيران، ومن كلام أبي الذي يقول:

«عمان.. غير، هناك سيل يشقّها، ومبانٍ تعانق الجبال، وناسها ليسوا كمثلنا.»

فنحلم بها، لا لنعيش فيها، بل لنشعر أننا أقرب إلى شيء من الحياة.

وكبرنا.. وكبر المخيم فينا، صار خريطتنا الأولى، وملعبنا الأخير، وصار بيتنا غربي النهر، لا عنوان له إلا في الحنين، كحبّة رمل ضاعت من قبضة طفل، لكنها تسبح في الذاكرة، لا تغرق، لا تجف، فقط تتلألأ كلما أغمضنا أعيننا وسمعنا أمّنا تقول:

«كان يا ما كان...»

عيد البُقَج

حين تدق الساعة نهاية الـدوام المدرسي، لا نركض كالعادة نحو الأزقة المليئة بالغبار لنلعب بالحجارة أو نتعارك على بقايا كرة ممزقة. لا.. هذا اليوم مختلف. نحن اليوم نحمل البُقَج.

كل واحد منا يخرج من بوابة المدرسة وهو يحتضن بُقجة من وكالة الغوث، مربوطة بخيط نايلون، تفوح منها رائحة المخازن لكنها بالنسبة إلينا، كانت تفوح بالفرح.

قمصان وبنطلونات وملابس داخلية وأحذية قد لا تكون على مقاسنا، وقد تكون قديمة أو ذات ألوان غريبة، لكننا لا نهتم. المهم أنها ملابس جديدة. المهم أن هناك عيدًا صغيرًا في انتظارنا في المخيم، اسمه: عيد البُقَج.

أمّي كانت تنتظرني عند باب الخيمة، تلوّح لي بيدٍ مبللة بالغسيل، عيناها تلمعان كما لم تلمعا منذ شهور. أسرع نحوها، تمدّ يديها بسرعة، تتلقّف البُقجة كأنها كنزٌ نزل من السماء.

تفتحها على الأرض، أمام إخوتي، تنظر إلى كل قطعة كما لو كانت تُقلّب أحلامها القديمة. تفرز القمصان، تختبر الأقمشة بأطراف أصابعها، تضحك، ثم تقول لأختي الصغيرة:

«هاي إلك...يا ريت أبوكِ يشوفك فيها.»

ذاك النهار في المخيم عيدٌ ليس فيه كعك أو ألعاب نارية، لكن فيه كسوة للعراء، فيه لونٌ جديد نعلّقه على جراحنا.

أبي يعود في المساء، يضع كيس الخضار جانبًا، يجلس، ينظر إلى البقجة، يلمس القماش، ثم يقول بحزن ممزوج بامتنان:

«لولا وكالة الغوث، متنا من البرد والجوع.»

يصمت لحظة، ثم يضيف:

«كأنها المسيح جاءت لتنتشلنا من وجعنا.»

لكنه سرعان ما ينظر إلى البعيد إلى حيث بيت جدي غربي النهر، هناك حيث كانت أمّه تخبز على التنور، وتلبس أبناءها من غزلها، لا من بُقَج الإغاثة.

لكن أحزاننا غادرت إلى هناك، وتركتنا هنا، نحتمي بكساء لا يشبهنا، ونفرح رغم كل شيء. نفرح لأننا لا نملك غير هذا الفرح الصغير

فرح نُخيط به ذاكرتنا، قطعة قماش...على قطعة حلم.

بِرْكَة الغُولَة

كانت بركة الفوسفات شرقي المخيم كغولة جائعة، تبتلع أبناء المخيم بلا رحمة، كأنها فمٌ أسود يبتلع الأحلام ويخنق الأنفاس، ترسل رمالها المسمومة كأنيابٍ حادة تلتهم البراءة والعزائم.

في عيون الصغار، كان الخوف يرقد كطيفٍ لا يبرح، ينسج ظلاله كلما همس الريح باسم البركة القاتلة، ذلك البحر الصغير من الغدر والهزيمة.

كانت البركة كهاويةٍ مظلمةٍ لا تُرى بأبصار الجسد، لكنها تُحس بثقلها في صدور الجميع، كوشم أسود محفور في ذاكرة المخيم. كل من ألقى بنفسه فيها كان بمثابة نجمٍ سقط من سماء الأمل، اختفى بين رمال الفوسفات كظلٍ يذوب في ليلٍ بلا فجر.

في طيف الليل، تجمع الشبان على ضفاف الغولة، وأشعلوا الشموع في وجه الظلام، قرروا أن يحولوا رعب البركة إلى قصة

صمودٍ تروى، أن يجعلوا من رماد اليأس بذور حياة جديدة. كانت أيديهم تزيل الغبار، وقلوبهم تغرس بذور العزيمة، حتى بدأت الغولة تخسر عروشها، وتذوب جدرانها تحت ضوء الحلم الذي أضاء وجوههم.

هكذا، لم تعد البركة وحشًا يبتلع، بل تحولت إلى مرايا تعكس شجاعة شعبٍ رفض أن يغرق في محيط اليأس، وقرر أن يكتب فجرًا جديدًا من قلب الظلام.

رائحة البؤس

في قلب المخيم، حيث تصطف بيوت الصفيح على أطراف الحارات، كانت حمّامات وكالة الغوث تستقبل أبناء المخيم بصمت. الحمّام أو بيت الخلاء كما يسمّونه ليس أكثر من غرفتين صغيرتين، لكل واحدة بابان، لكن دون أبواب، باب واحد للرجال وآخر للسيدات. لم يكن هناك أي خصوصية، وإذا دعت الحاجة إلى دخول الحمّام، كان على الشخص أن يصدر نحنحة خافتة، إشارةً لعدم وجود أحد داخله.

كان الناس يقضون حاجاتهم بصمت، والهمس بين الجدران الطينية يعانق رائحة الغربة. كلما امتلأت جورة الحمّام بمخلّفاتهم البشرية، كانت تصل سيارة تحمل صندوقًا محكمًا، ينحدر من صندوقها حبل متدلي عليه دلو معدني. ينهض العاملون ما بها من مخلّفات، محاولة تلوح بلحظة رحمة في وجه البؤس اليومي.

لكن الرائحة لم تختفِ، بل كانت تطوف البيوت مع نسيم

المخيم. اعتاد الناس على هذا العذاب، صارت الرائحة جزءاً من ذاكرة المخيم، مثل قصة لا تنتهي، تُروى بصمت في كل زاوية. بين بيوت الصفيح والوجوه الكادحة، عاشت رائحة الألم، ورائحة الانتظار.

في هذه الأرض الصغيرة، حيث البؤس لم يكن خياراً بل قدرًا، استمر السكان في العيش، يتنفسون بين رائحة المخلّفات وهمس الأمل، متشبثين بحلم أبعد من تلك الروائح التي لا تنطفئ.

حَنَفِيات الغَضب

في زوايا مخيم يكتظ بالناس والهموم، كانت حنفيات المياه تفيض بالحكايات، كما تفيض من شفاه النسوة شتائمهن وأوجاعهن. تلك الحنفيات التي شُيّدت في أزقة المخيم الضيقة، كانت نبض الحياة الوحيد، تتدفق من بئر عتيقة، تُحيي خزانات السوق الكبير التي تنتظر الماء كعطشى صابرين.

كانت نساء المخيم يقفن عند تلك الحنفيات، وفي كل قطرة ماء، تغسل مشاجرات قديمة تلتقي بلهيب الحاضر. كانت المشاجرات تصاحبهن كظلال لا تفارقهن، أصواتهن تتعالى بين الأزقة، مشبعة بالغضب والخذلان والحكايات التي لا تنتهي.

ذات مساءٍ، في لحظة ثورة غاضبة، تلاشت الحياء أمام انفعال امرأة شابة، غرقت في عراك جسدي وروحي، شهدت فيه ثيابها تمزقًا وشعرها تطايراً، كأنما الريح تلاعبت بأهدابها بألم حاد. وقفت وسط الحشد، ونظرت إلى من حولها بعينين تشعّان حقدًا موجعًا، وقالت بصوتٍ تخترقه جراح الأيام:

«أنتم نَوَر، أي غَجَر!»

لكن صدى كلماتها لم يجد آذانًا تستمع، فالحياة في المخيم جفّت، وصارت الشتائم تتكرر بلا معنى ولا وزن.

لم تعد «نَوَر» شتيمة توجع، بل أصبحت كما لو أنها كلمة معتادة في قاموس الحياة هناك، مثل نسائم عابرة لا تستقر. وتساءلت أم العبد، بصوتٍ ثقيلٍ بالمرارة:

«هل من شتائم من الزنار وتحت؟»

وكأنّ هناك طبقات من الشتائم تمضي أعمق من الكلمات، تتسلل إلى ما هو أكثر خصوصية وحساسية.

في هذه الفوضى، بقيت حنفيات المخيم صامتة، لكنها كانت ذاكـرة حيّة تحمل في تدفق مياهها قصص الناس. كانت تلك الحنفيات توثّق كل لحظة غضب، كل كلمة جارحة، كل لحظة تلاحقها دموع مكبوتة. كانت تضجُّ برؤوس الناس، كأنها خزانات للمشاعر المكبوتة، تجمع كل العبارات وتغلي بها في هدوءٍ مظلم.

هكذا كانت حياة المخيم، حياة تتناوب بين الشحوب والغضب، بين الأمل واليأس، تتكسر فيها ثياب النسوة، ويُبعثر شعرهن، وتتبادل الشتائم حتى تُنسى أصول الكلمات، ويبقى صوت الحنفيات وحده صادقًا، ينقل للحياة نبض المخيم وروحه المتعبة.

حين احترق قلب المخيم

كان مساء المخيم يتهيأ لنوم مبكرٍ، كعادته، حين استيقظ على صرخة من نار. ارتفعت ألسنة اللهب كأنها لعنة انبثقت من باطن الأرض، والتهمت صيدلية الطليعة التي طالما كانت للناس ملاذًا، لا مجرد حانوت دواء.

صيدلية الطليعة لم تكن مجرد مكان تُصرف فيه الوصفات، بل كانت قلبًا ينبض في خاصرة المخيم، بيتًا أبيض تضيئه مصابيح الثقة، ويعطّره الحنين. في ركنها العتيق كان مايكل، الصيدلي الذي أحبّه الجميع، يجلس بين الرفوف كراهبٍ في صومعته، لا يخطئ خلط الوصفة، ولا يردّ سائلًا، ولا يُخفي حنوّه خلف النظارات السميكة التي لا تفارق عينيه.

كان الناس يقولون إن مايكل يعرف أوجاعهم أكثر من أطباء عيادة وكالة الغوث، يقرأ الوجع في العيون، ويشخصه قبل أن تُفتح الأفواه. كانت له ابتسامة دافئة، تسبق الدواء إلى شفاء الروح.

وفي تلك الليلة المشؤومة، فزع المخيم على دويِّ النار، وكانت الصيدلية تشتعل كأنها قصيدة تحترق. سُمعت انفجارات الأدوية، كأنها قنابل تسقط من السماء، وزجاجات تنفجر في نحيبٍ زجاجيّ مؤلم. رائحة الاحتراق كانت مزيجًا غريبًا من الكحول والأعشاب والوجع.

ركض الناس حفاة نحو اللهب، يحدوهم الخوف على مايكل، وعلى دوائهم، وعلى ذاكرة كاملة كانت تُطوى بين الجدران. هناك، وسط العتمة والرماد، ظهر وجه مساعد مايكل — الشاب الوسيم الذي كان يحلم بفتح فرع جديد — لكنّه كان قد تفحّم، كأن النار اختارته قربانًا.

ارتفعت صيحات النساء، وانهمرت الدموع مثل مطرٍ متأخر، لكن في لحظة صمت مباغتة، تقدّم شيخ كبير من وسط الحشد، كان يرتدي عباءة قديمة، وعصاه تسبق خطاه، ووقف بين النار والناس، وصاح بصوتٍ هدّه الزمن لكنه لم يفقد هيبته:

«ابعدوا... فللصيدلية ربٌّ يحميها!»

ساد وجوم. كانت النار في اشتعالها الأخير، كأنها خجلت من يقين الشيخ، أو ارتبكت من هالة الإيمان التي حاصرها بها، وما هي إلا لحظات حتى انطفأ اللهب، وارتفعت سحابة من الدخان نحو السماء، كأنها روح المخيم تصعد للصلاة.

ومنذ ذلك اليوم، لم ينسَ أهل المخيم حريق الطليعة، لم ينسوا مايكل، ولا وجه المساعد الذي لم يُدفن كما يليق بالأبطال، ولا صوت الشيخ الذي أوقف النار بكلمة.

ذاك الحريق لم يلتهم خشبًا وزجاجًا فقط، بل أشعل الذاكرة في قلب كل من مرّ بالصيدلية يومًا، فصارت رمادًا دافئًا لا يزال يبعث الدفء في برد النسيان.

وهكذا، بقي حريق صيدلية الطليعة... تاريخًا محفورًا في ضمير المخيم.

طابور الحَليب

كان الصباح في المخيم يبدأ على وقع خُطى صغيرة تكدّست على الطرقات الترابية، تتجه بخجل النعاس نحو «مطعم وكالة الغوث»، حيث كوب الحليب وحبة زيت السمك ينتظران كأنهما مناولة فجرٍ مقدّسة، لم يكن ذلك مشهدًا عابرًا، بل طقسًا يوميًا، أشبه بالصلاة، لا يكتمل نهار الأطفال دونه.

يصطفّون في طابورٍ طويل، تتشابك فيه الأجساد النحيلة والحقائب الباهتة، كأنهم أوتار قيثارة حزينة، تعزف لحنًا واحدًا: لحن الفقر الممزوج بالأمل.

لم يكن كوب الحليب دافئًا دائمًا، وربما لم يكن لذيذًا أبدًا، لكنه كان كافيًا لملء فجوة جوعٍ لا تنام. وحبة زيت السمك؟ آه، كم تذمّر منها الصغار، وتفننوا في إخفائها تحت اللسان أو دسّها في التراب، لكنهم أدركوا لاحقًا أن تلك الحبة الصغيرة كانت حبة من حياة، تُساق إليهم باسم الرحمة.

كـان الـطـابـور الصباحي فريضة المخيم، يُـؤدى بخشوع المجبورين، لا برغبة الأحرار، وكان أستاذهم، الذي طالما لوّح بعصاه كأنها سيف عدالة، يصرخ في الوجوه الصغيرة:

«انت! يا ولد... انت يا حمار! التزم بالطابور! انت! وانت! وانت!»

كان صوته قاسيـًا، كأنّه لا يعرف من الطفولة سوى الضرب، ومن التربية سوى الصوت العالي، لكنّ الأطفال، رغم انكسارهم اللحظي، ظلوا يحملون تلك اللحظات في ذاكرتهم، كما يحمل العطاشى ذكرى آخر قطرة ماء.

تمرّ السنوات، ويكبر الصغار، يصيرون شبابًا يحملون على أكتافهم تعب المخيم، ثم شيوخًا يتكئون على عصيّ تشبه عصا الأستاذ، لكن بلا قسوة. وفي كل مناسبة تجمعهم: عرس، جنازة، عودة غائب، أو حتى حكاية تُروى عند باب البيت. تعود تلك الصور دفعة واحدة: الطابور، كوب الحليب، زيت السمك، صراخ الأستاذ، والأطفال الذين كانوا يضحكون رغم الجوع، ويلعبون رغم التعب. إنها ذاكـرة المخيم، لا تسكن الجدران بل تسكن الصدور. فزعةٌ متأصلة، تسبق التفكير وتتفوق على النسيان، في كل وقت يحتاج فيه المخيم أبناءه، يهبّون كأن الطابور لم ينتهِ، وكأن الحليب ما زال يُوزع، وكأن الأستاذ ما زال يصرخ:

«التزم بالطابور!»

لكنهم الآن يفهمون: كان الطابور درسًا في الانضباط، وكان الصراخ درسًا في الاحتمال، وكان كوب الحليب... وعدًا صغيرًا بأن الغد قد يكون أفضل، وأن من تعلم الانتظار، لن يفقد الصبر على الطريق.

على باب الطحين

كان المخيم يستيقظ باكرًا في صباحات التوزيع. الناس يعرفون الموعد دون أن يُعلن. رائحة الطحين كانت تسبق الشاحنات، وصرير بوابة مركز التوزيع التابع لوكالة الغوث، كان كجرس منبهٍ لحياة مؤجلة.

رجال ونساء خرجوا من البراكيات، أجسادهم مثقلة بالنوم، وأرواحهم مثقلة بأكثر من ذلك بكثير. تتقاطر الصفوف أمام المركز، طابور يشبه الجديلة التي تنفلت كلما اشتدت الريح، لكنها لا تنقطع. الوجوه شاحبة، الملامح منهكة، والمكان متخم بالصبر.

في الخلف، كان صوت حمارٍ ينهق، وقد عُلّقت على ظهره خُرَجتان كبيرتان تنتظران امتلاءهما، وعربات خشبية مهترئة تدفعها أيدٍ كانت يومًا تزرع القمح، صار همها اليوم أن تنقله من باب المذلة إلى فم العائلة.

في الداخل، تُوزّع الأكياس ببطء، كأن من يُعطي، يتصدّق على زمنٍ مكسور، وكأن الطحين الأوروبي يزن الكرامة بالميزان. بعضهم حمل حصته وانصرف، والبعض الآخر لم ينتظر طويلًا. بمجرد أن ابتعد خطوات، أقبل عليه التّجار، بابتساماتٍ باردةٍ وعيونٍ تعرف كيف تصطاد:

«تبيع؟ تبيع؟ بسعر كويس...»

في لحظة صامتة تبدو الحياة كلها صفقة خاسرة، لكن الجوع لا يتفاهم مع العزة، والجيوب لا تنتفخ بالكبرياء. كانوا يبيعون... يبيعون ما لا يكفي، ليشتروا ما هو أَوْلى، حليبًا لطفلٍ، دواءً لشيخ، أو دَينًا قديمًا. ورغم كل ذلك، لم يكن الطحين هو ما يُثقل ظهورهم، بل تلك الذاكرة التي لا تُطحن، ذاكرة البلاد التي خرجوا منها، مفاتيح البيوت المعلّقة فوق المسامير، وأسماء القرى التي لا يخطئها اللسان، حتى وإن نسيه العالم.

كان المخيم في بداياته خيامًا تهتزُّ مع الريح، ثم أصبح براكياتٍ من زينكو وباطون، لكن الريح لم تتوقف، ولا الوجع تغيّر. وفي آخر الطابور، كان طفلٌ يراقب المشهد بعينين واسعتين، يحمل كيس الطحين أكبر من جسده، ويشدّه خلفه على الأرض، تاركًا أثره في الغبار.

سأله رجلٌ مبتسمٌ بسخرية:

«بتعرف شو هذا؟»

فردّ الطفل، دون أن يلتفت:

«هذا مفتاح خبزي... مش مفتاح رجعتي»

ثم تابع طريقه... كأنه يعرف أن الرجوع لا يُوزّع في الأكياس، بل يُزرع في القلب، وينبت يومًا... ولو بعد حين.

رائحة المخيم

في قلب المخيم، حيث الأزقة ضيقة كأحلام الصغار، وحيث تلتصق البيوت ببعضها كصدور الأمهات ساعة الخوف، كان سوق المخيم ينبض كل صباح كقلبٍ لا يهدأ. الهواء هناك لا يشبه أي هواء، ممتلئٌ بروائح الخبز الساخن، والتعب، وبضحكات الصبية وهم يتراكضون بين العتبات، لكن الرائحة الأجمل، الرائحة التي كانت توقظ المعدة والذاكرة معًا، هي رائحة فلافل أبو يوسف.

ذاك الدكان الصغير، المطلّ برأسه على زقاق ضيق يشبه مجرى دمعة، كان معجزةً يومية... يقلي الفلافل في زيتٍ يغلي كأحلام العائدين، ويرشّ الشطّة في الرغيف كأنه يباركه، ويبتسم.

«أبو يوسف» كان أكثر من بائع فلافل، كان حكواتيًا بنكهة السمّاق، ويده التي تمسك الملقط كانت كمن يعزف على وترٍ قديم. يضع قرص الفلافل في الرغيف كما يضع الأب قبلة على

جبين طفلٍ نعسان، ويقفله بقطعة بندورة، ورشة ملح، وقليل من الشطّة إذا رغبت، ونظرة حنان.

لم تكن فلافله فقط لذيذة، بل كانت تقول شيئًا لا يُقال:

«ما زلنا هنا... وما زال لنا طعم»

وعلى بُعد دكانين، كان «أبو سامر»، يرتّب قدور الفول والحمص والمسبّحة كما يرتّب الجندي بندقيته. البخار يتصاعد منها كشهادات على الصبر، والملعقة الكبيرة تهمس داخل القدر كمن يروي سِرًّا قديمًا.

فطوره كان افتتاحية اليوم، الفول بزيت الزيتون الثقيل، المسبّحة بتلك اللسعة الخفيفة من الليمون، والحمص الذي يذوب في الفم كأنه لاجئ عاد للحظة إلى بيته.

كل صباح، يجلس الرجال على الأرصفة، يكسرون الخبز بأيديهم، يتشاركون الصحون كما يتشاركون الهمّ، وكانت النسوة يرسلن أبناءهن حاملين الصحون المعدنية، وفي طريق العودة، يسرق الأولاد قرص فلافل أو يغمّسون إصبعًا في الحمص.

في المخيم، لم يكن الفطور مجرد وجبة، كان طقسًا جماعيًا للمقاومة، وللاعتراف الضمني أن ما زال في الحياة متسعٌ للمتعة... ولو بطبق فلافل، أو رغيف مغموس في زيت وذكريات، وكانوا

يقولون إن من لم يذق فلافل أبو يوسف، ولا الحمص عند أبو سامر، فلم يعرف طعم المخيم.

ورغم مرور السنين، وتهالك الجدران، وتبدل بعض الوجوه، ظلّ المكان كما هو... توقظه رائحة الفلافل، وتوقظه قلوب لا تزال تؤمن أن الحياة تبدأ من لقمة، وتكبر بحكاية.

طوبة ناقصة في السور

كان سور المدرسة عاليًا بما يكفي ليحجب الشمس عن ساحتها وقت الظهيرة، ومرتفعًا بما يكفي ليزرع في الأطفال فكرة أن الخارج ليس لهم، لكن في الركن الشرقي من الساحة الخلفية، كان هناك فراغ صغير... طوبة ناقصة.

لم تكن واضحة من النظرة الأولى، لكن من يعرف المخيم، يعرف كيف يرى التفاصيل الصغيرة التي تمر على الغريب.

كان موسى، ابن التسع سنوات، يلعب بالقرب من ذلك الركن كل استراحة، يتظاهر بأنه يرسم بالطباشير على الأرض، لكن عينه دائمًا نحو تلك الفجوة. في أول مرة نظر من خلالها، لم يرَ شيئًا... فقط الشارع الرملي وبقايا جدار آخر، لكن هناك أمرًا غريبًا...شيئًا يشبه الهواء الحر.

منذ ذلك اليوم، صارت الطوبة الناقصة نافذته. يطِلُّ منها كل صباح، كأنما يتأكد أن العالم لا يزال هناك، وأن المخيم، مهما ضاق، ليس نهاية الجغرافيا.

سأل المعلم مرة:

«ليش واقف هناك كل يوم يا موسى؟»

ردّ وهو يبتسم بخجل:

«بتفرّج...بس»

لم يكن موسى يملك هاتفًا ولا خريطة، لكن من تلك الفجوة رأى العالم كله، رأى البحر، ورأى بيت جَدّته الذي قيل إنه احترق، ورأى شجرة زيتون تقف وحدها على تلة، وسمع صوت الطاحونة تدور في قريته القديمة كما وصفها له أبوه.

كلما ضاقت عليه الحصص، ذهب إلى تلك الزاوية، ووضع عينه على الثغرة، كمن يفتح كتابًا من الصور. وفي يوم شتائي، ركض الأولاد إلى الصفوف خوفًا من المطر، إلا موسى...وقف هناك، ترك القطرات تغسل وجهه، وهمس لنفسه:

«لو فاتت الطوبة هاي شوي، بمرّ منها...يمكن بلاقي الطريق»

ورحل إلى الصف وهو يخبئ تلك الفكرة في قلبه. كبر موسى، وصار شابًا يمر بجانب المدرسة القديمة، ينظر إلى السور، ولا يرى الفجوة، قد يكونون رمّموها، أو قد تكون اختفت بين طوبٍ جديد وسورٍ صار أعلى. لكنه ظل يقول في سرّه:

«في كل سور... طوبة ناقصة»

عربة الكاز

في المخيم، لم يكن الشتاء مجرّد فصل، كان إعلانًا رسميًا عن بدء معركة جديدة، برد ينسلُّ من الشقوق، يرتجف له الزينكو، وتشتعل له الذاكرة، وحين كان البرد يبلغ ذروته، كانت «عربة الكاز» تظهر كمنقذٍ قديم، صوتها يسبقها، تئنّ في الشوارع الضيقة بصوتٍ يشبه بكاءً مكبوتًا:

كاز... كاااز...

كان الأطفال يركضون إلى النوافذ، يتسابقون من يراها أولًا، يجرّها حمارٌ هزيل، وعلى متنها صفّ طويل من جالونات الحديد، تتأرجح كأملٍ مهدود. أبو محمود، الرجل الذي يقود العربة، كان يعرف بيوت المخيم بيتًا بيتًا، ويعرف أي الأرصفة تنزلق تحت عجلاته، وأي الأمهات تـدسّ له قرشين زائدين خجلًا، وأي الأطفال ينتظرون رائحة الكاز كأنها رائحة خبز.

«قدّيش اليوم؟»

تسأل أم خليل، وهي تعصر قلبها قبل يدها.

«زي دايم، بس ناقص الشلن، بكرا بتوصلي»

يقولها أبو محمود.

ويفرغ الكاز في الدفّاية كأنه يسكب حياةً سائلة. كانت الدفاية تتوسّط الغرفة، وحولها تلتف الأسرة كحكاية، تضع الأمهات فوقها إبريق الشاي، ويحمّص الآباء أرغفة الخبز، ويرسم الأولاد وجوههم على الزجاج المبلل بالبخار.

لم يكن الكاز وقودًا فقط، كان دفء الروح، وكان صوت أبو محمود في الأزقة هو النشيد الوطني للشتاء، لكن شيئًا فشيئًا، غابت العربة... وغاب صوتها، استُبدلت بالمدافئ الكهربائية، وانطفأت روائح الدفء القديمة، وصار الأطفال لا يعرفون ما معنى أن تنتظر شيئًا لا يأتي من الكهرباء...بل من صوت، من حمار، من رجل اسمه «أبو محمود» يعرف أنك تحتاج الدفء ولو لم تقل.

وفي يوم شتائي رمادي، كان خليل - الذي صار شابًا - يقف أمام دكانٍ صغير، وفجأة...سمع صوتًا بعيدًا يشبه الطنين:

«كاز... كاز...»

أدار وجهه بلهفة، لكن لم يجد شيئًا، كان الصوت ذاكرة، ابتسم، ووضع يده في جيبه، ولمس شيئًا صغيرًا صدئًا... مفتاح جالون قديم.

خيمة رقم ١١

لم يكن هناك باب يُطرق، فقط ستارة مهترئة من قماش أبيض باهت، تتدلّى على مدخل الخيمة، تتحرك مع كل نسمة ريح، كأنها تُلوّح للعابرين...أو للراحلين.

خيمة رقم ١١، كانت واحدة من صفٍ طويل من الخيام، متشابهة في الشكل، مختلفة في القصص، نُصبت بعد أيام من النزوح، حين كانت الأرض لا تزال طريّة من أثر الأقدام، والقلوب ساخنة من الوجع الطازج، كان أبي يقول لي:

«هاي مش بيتنا... بس هان رح نحكي الحكاية من أول وجديد»

داخل الخيمة، لا خصوصية، لا غرف، لا نوافذ، لكن ثمّة دفئًا لا يمكن تفسيره، ولدٌ ينام بجانب أخيه، وأم تحضن كل شيء حتى الهواء، وأب ينفث أمله في سيجارة ملفوفة على عجل.

في المساء، كان صوت المطر على القماش يشبه الطبول، يوقظ

الخوف أحيانًا، ويُغني أحيانًا أخرى. وفي كل قطرة، كنا نعدّ وقت الغربة، كأن العودة ستأتي مع آخر مطر.

خيمة رقم ١١ كانت أوسع من مساحتها، فيها وُلدت أنا، وفيها حفظت أمي أسماء القرى التي لن نراها، وعلّق أبي مفتاح البيت على المسمار، وقال:

«بنرجعه...بس مش هالحين»

مرت السنوات، تحوّلت الخيام إلى براكيات، والبراكيات إلى كتل إسمنتية، واختفت خيمة رقم ١١ من المكان...لكنها لم تختفِ منّا. في قلبي، ما زالت قائمة، تفوح منها رائحة الكاز والمطر، وصوت أمي وهي تقرأ دعاء النوم، وصوت أبي يقول:

«كل شي مؤقت...حتى اللجوء»

واليوم، كلما رأيت خيمة في نشرة الأخبار، أبحث بعيني عن رقمها، علّني أجد: رقم ١١...

الخيمة التي لم تكن بيتًا، لكنها علّمتنا أن البيت هو حيث يبدأ الأمل، ولو من قطعة قماش.

المفتاح

كان يتدلّى من مسمارٍ صغير في الجدار، محاطًا بإطار خشبي مهترئ، كأنّ الذاكرة قرّرت أن تصنع له مكانًا خاصًا في جدار الزمان. مفتاح بيتنا في زكريا الخليل، لا أحد استخدمه منذ أكثر من سبعة وسبعين عامًا، لكنه ظل هناك، ثابتًا كقَسَم لم يُحنث بعد، وكأن جدران المخيم الهشّة كانت تُبنى حوله، لا العكس.

كنتُ طفلًا عندما وقعت عيناي عليه أول مرة. سألت أبي:

«ليش حاطه هون؟ ما بيفتح شي!»

ضحك دون صوت، ثم قال:

«بيفتح أكتر مما بتتخيل... بس مش بواب»

لم أفهم.

كان المفتاح صدئًا، ثقيلاً على غير حجمه، حلقته مثنية قليلًا من طرفها، كأنها انكسرت يوم انكسر كل شيء.

في ليالي الشتاء، عندما كانت الرياح تُزمجر فوق الزينكو، وتتنقل قطرات المطر من حفرةٍ إلى حفرةٍ في السقف، كان أبي ينهض، يضع الغلاية على دفاية الكاز، ويجلس تحت المفتاح تمامًا.

هناك...كان يحدثنا عن البيت.

«بـاب خشبي ثقيل...مفتاحه يصرخ أول ما يلفّ، ريحة الياسمين كانت توصل من أول الزقاق، وحَصيرة صغيرة قدام الباب، كنا نمسح رجلينا فيها قبل ما نفوت.»

كنا نسمع ونتخيله، كأن المفتاح هو آلة عرض سينمائي معلّقة في سقف الذاكرة، تبثّ صورًا غير ملوّنة، لكنها مغمّسة بالحنين.

كان يحفظ تفاصيل لا تحفظها ذاكرة رجل عادي: عدد درجات السلم، شكل مقبض الباب، نقوش البلاط في أرضية المطبخ، حتى صوت خشبة الحطب وهي تئنّ تحت «سدر المجدّرة».

«كل شي كان هون»

قالها وهو يشير إلى صدره، ثم إلى المفتاح.

وفي يـوم، جاء مسؤول إغاثة أوروبـي إلى المدرسة، وسأل الأطفال أنً يرسموا «بيت أحلامهم». رسمتُ المفتاح، وكتبت تحته:

«هذا هو البيت»

ضحك المعلم، لكن أبي، عندما رأى الورقة، قبّل رأسي.

«أنت ابن المخيم، بس قلبك في مطرحه»

مرت السنوات. المفتاح لم يبرح مكانه، حتى حين تهالكت الجدران، وانتشرت الرطوبة في الزوايا، وبدأ الطلاء يتساقط، ظلّ هو وحده يقف كجندي على الحائط، صامتًا، لكنه حاضر.

سألني أحد أصدقائي يومًا:

«ما إلهم مَعنى المفاتيح هالأيام، ليش لسّاتك معلّقه؟»

نظرت إليه وقلت:

«أنت ما كنت هون لما المفاتيح صارت كرامات، مش معادن»

ثم أضفت دون أن أُقنعه:

«هذا مش بس مفتاح باب...هذا مفتاح الحقيقة»

وفي يومٍ صيفي رمادي، رحل أبي. دفنّاه في مقبرة المخيم، وبعد الدفن، عدت إلى البيت، وحدي، وقفت تحت المفتاح، ونظرت إليه طويلًا.

مددت يدي، نزعته عن الحائط لأول مرة، شعرت كأنني أنتزع قلبًا قديمًا، لكنّي فعلت، وفي اليوم التالي

دسسته في جيبي، وذهبت إلى صانع مفاتيح في السوق، قلت له:

«انسخ لي هذا المفتاح»سألني بدهشة:

«شو بدك تفتح فيه؟»

أجبته بهدوء:

«باب مش موجود...بس رح يرجع»

ومن يومها، صرت أحمل واحدًا في جيبي، وأخفي الآخر تحت وسادة أبي، وحين كبر ابني، أريته المفتاح، حكيت له كل الحكاية، وسألته:

«شو بتعمل إذا أنا ما قدرت أرجع؟»

فقال لي، بثقة لم أرها إلا في عيون أبي:

«بفتحه أنا»

الزفتة السوداء

لم تكن شوارع المخيم تُسمّى بأسماء الشهداء أو القرى التي جاء منها الناس، بل كانت تُعرف بروائحها، بصوت أقدام الأطفال، وبرك الماء، والزفتة السوداء.

الزفتة لم تُفرش في البداية، حين كان المخيم خيامًا على تراب رطب، تمشي فيه فيغوص كعبك حتى كأنك تمشي على ذاكرة مغمّسة بالطين. ثم، في سنة لا أحد يذكرها تحديدًا، جاءت لجنة من «الوكالة»، قالوا:

«رح نزفّت الشوارع»

فخرج الناس من خيامهم، بملابس العمل، يتطلّعون إلى براميل القطران الساخن، كأنها تمثال للتمدّن هبط من السماء، أبي وقف يومها شارداً، وحين سألته:

«شو يعني زفتة يا با؟»

أجابني وهو ينظر إلى التراب تحته:

«يعني الطريق ما عاد يبلع رِجلك...بس بعد بيبلعك»

ضحكتُ يومها، ولم أفهم.

كانت الزفتة تغلي حين صُبّت أول مرة، تتلوّى على الرمل، وتنثر رائحة لاذعة...خليط بين الحريق، والحلم، والخذلان، لكن المخيم استبشر.

«صرنا مدينة»، قال بعضهم.

كنا نركض حفاة فوقها وهي لا تزال دافئة، نطبع أقدامنا كما لو كنا نترك أثرًا لا يمحى، ثم تأتي الشمس في اليوم التالي، وتجعل الزفتة مرايا سوداء، تعكس وجوهنا الصغيرة...مبللة بالعرق، والعناد، والضحك.

لكن الزفتة، رغم سُمكها، لم تُغلق الثقوب.

في الشتاء، كانت المطرات الأولى تفضحها، تحفر فيها خنادق صغيرة، تتجمع فيها المياه، وتتحول إلى مرآة مؤقتة، يرى فيها الأولاد السماء بالمقلوب.

كانت جدّتي تقول:

«الزفتة ما غطّت الفقر، بس سوّدته»

وفي أحد الشتاءات، انزلقت امرأة مسنّة أمام دكّان أبو العبد، ضرب رأسها الرصيف، وانفجر الكلام في أزقة المخيم:

«ليش ما حطّوا صرف صحي؟»

«ليش الزفتة بس للصور؟»

«ليش نحنا بنبلع الزفتة والزمن سوا؟»

لكن الصمت كان أعلى من الصوت. مرت السنون، وصارت الزفتة أقدم من الأطفال. تشقّقت...وتآكلت...ونبتت فيها أعشاب صغيرة، كأنها تعتذر عمّا أخفته، أو عمّا لم تستطع أن تحمله.

كنا نلعب في الزقاق، ونعدّ عدد الحفر في الطريق، ونراهن من يقفزها دون أن تبتلّ قدمه، لكننا كنا نعرف – في سرّنا – أن الزفتة ليست طريقًا...بل شاهدًا. شاهد على كل من مشى، كل من وقع، وكل من سقط ولم يجد من يرفعه.

حين كبِرتُ، صرت أمشي على الزفتة ببطء، أعرف أن في كل حفرة تحت قدمي قصّة غارقة، حفرة تذكّرني بأبي، عندما تعثر وهو يحمل صفيحة الزيت، فسال الزيت على الإسفلت كدمٍ ثقيل، أمسكته، رفعته، قال لي:

«المخيم ما بيوقع...بيركع شوي وبوقف»

اليوم، أعـود إلـى المخيم بين حين وآخـر، أمـرّ فـوق الزفتة القديمة، أشعر أن الأرض ما زالت تناديني، وأن الشارع، برغم سواده، يحفظ خطاي وخطى الذين رحلوا، أسير فيها وأقول:

«نحن مشينا على الزفتة...بس مشينا برأس مرفوع»

خزان الماء على السطح

كان الخزان الأسود ينتصب على السطح كجندي منهك، رأسه إلى السماء، بطنه مليء بالأمل...أو فارغ إلا من الهواء. لم يكن مجرد خزّان، كان ساعةً نضبط بها مواعيد الغسيل، والاستحمام، والشتائم.

في المخيم، لم يكن الماء دائمًا، بل كان موسمًا...مرة يأتي خجولًا، كأنابيب خجلى، ومرة لا يأتي أبدًا.

كان أبي يصعد السلم الخشبي المُهترئ كل صباح، يضرب جدار الخزان بكفّه، ثم يمدّ أذنه إلى جنبه، يُنصت له كما يُنصت لأخبار الحرب.

«لسّا في شوي، اليوم بنتحمم»

وحين لا يسمع إلا الفراغ، يعود إلى المطبخ، ويبدأ مفاوضات الماء.

«غسل الوجه، بس...الطنجرة أولى، بلاش حمام اليوم»

كنت صغيرًا حين علّمني أبي كيف نصعد إليه، قال لي:

«هالخزان مش بس خزان...هو خزّان ذاكرة»

ضحكت، ما فهمت.

لكن حين صعدت، ورأيت المخيم من فوق، فهمت.

من فوق الزينكو، بجانب الخزان، تبدو البيوت متراصة كأصابع مُتشابكة، والسطوح مثل صفحات دفتر...كل بيتٍ يحكي حكايته بصمت: حبل غسيل مليء بجوارب متعبة، علبة سردين فارغة، وطفل يركض خلف حَمامة لا تعرف المخيم. لكن الخزان...هو التمثال، قابع هناك، ثابت، يغلي صيفًا، ويجمد شتاءً، ويظل يوزّع الحياة قطرة قطرة، كمن يعطي من نفسه ما تبقّى.

كنا ننتظر الشَحّادة تدخل الحارة، وهي تصرخ:

«الميّه اليوم يا مخيّم! عبّوا عبّوا!»

فتتسابق الأمهات، يركض الأولاد يحملون «التنك» والجالونات، والسطوح تتحول إلى محطات أمل مؤقت، وفي العصر، يصعد أبي ليطمئن:

«ارتفع المي، الحمد لله...نشف الغسيل، وقلوبنا بلّت شوي»

مرت السنوات، وتشقق الخزان، صار يسرّب الماء كما يسرّب الحنين، اشترينا واحدًا جديدًا، لكن أمي رفضت رمي القديم.

«خليّه فوق، هذا خزان عمرنا...شهد صيفنا وجفافنا»

فبقي هناك، فارغًا، لكن واقفًا كتمثال شهد كل شيء.

اليوم، حين أزور بيتنا في المخيم، أصعد إلى السطح، أمسح الغبار عن الخزان القديم، أطرق عليه كما كان يفعل أبي، وأسأل:

«لسّا في مي؟»

وأسمع صدًى داخليًّا يقول:

«لسّا في حكايات».

أرجوحة من حبل الغسيل

في المخيم، لا تُشترى الأراجيح من المتاجر، ولا تأتي مع كُتيّب تعليمات، بل تُصنع بالحيلة، وبقليل من الحبال...وكثير من الحلم.

كنا نصعد إلى سطح بيتنا الزينكو، ننظر إلى السماء، ثم نربط طرفي حبل الغسيل في ماسورتين صدئتين، نلفّ قطعة قماش قديمة في المنتصف، ونصنع منها أرجوحة.

لم تكن متينة، وكانت تُصدر صريرًا عند كل دفعة، لكنها، في نظرنا، كانت أرجوحة حقيقية...تهزّنا من قلب اللجوء إلى حواف السماء.

كنا نضحك ونحن نطير فوق السطح، نرى البيوت الزاحفة تحت أقدامنا، نسمع صياح الباعة في السوق، ورائحة خبز أم حاتم التي لا تخيب.

مرةً سقطتُ منها، خدشتُ ركبتي، وبكيت. قالت لي أمي وهي تمسح دمي بقماشة:

«لو كل مرة وقعتْ فيها الحياة، بكينا...ما بضل فينا عين!»

ثم ربطت الحبل من جديد، وقالت:

«اطلع...المخيم ما بربّي خوافين»

كانت الأرجوحة، بالنسبة لنا، انتصارًا صغيرًا على الضيق، على جدران الإسمنت المتعرقة، وعلى الغرف التي لا تتسع للركض.

كنا نطير ونضحك، ثم نرتخي عليها، نأكل بزر عين الشمس (عباد الشمس)، وننظر إلى الغيوم التي تمرّ بلا تصريح...مثلنا.

في يوم، جاء موظف من «الوكالة»، قال:

«هاي الأسطح ما بصير فيها لعب...خطر على الأولاد»

ففككنا الحبل، وتركنا السطح ساكنًا...بلا ضحك، لكنّ الطفل فيّ لم ينسَ.

كبرتُ، ورأيت في المدن الكبيرة أراجيح حديدية، مزخرفة، محمية، لكنني لم أضحك عليها كما ضحكت على حبل الغسيل القديم، لم تهزني كما هزّني حبلنا المتعب.

اليوم، حين أزور المخيم، أصعد إلى السطح، أنظر إلى ماسورتي الماء، وأتخيل الحبل مشدودًا من جديد، وفي ذهني، ما زالت هناك أرجوحة، تتأرجح وحدها...كأنها ذكرى لا تطيق السكون.

حبل الغسيل لا يسقط

في المخيم، لم تكن الأعلام ترفرف، لكنّ حبال الغسيل كانت تفعل. كنا نفتح شبابيكنا على فنايلّات، قمصان، شراشف مطرّزة بتعب الأمهات، تتمايل في الهواء...كأنها تردّ على الدنيا:

«ما زلنا هنا»

كان لحبل الغسيل احترامه، لا أحد يقطعه، لا أحد يسرق منه، ولا أحد يتجاوز ظلّه دون أن يهمس في نفسه بشيء، كل قطعة معلّقة عليه، هي سيرة حياة: قميص الأب المثقوب من كوعه، جوارب الطفل الذي يلعب حافيًا، منديل الجَدّة الذي تفوح منه الميرامية والدعاء.

كان حبلنا مشدودًا بين ماسورتين على سطح البيت، تهزّه الريح أحيانًا، تثقله الغيمة أحيانًا، لكنّه لا يسقط. مرّة قال أبي:

«لو سقط الحبل، بتعرف إنه في شي انكسر في البيت»

كنت أحب أن أراقب أمي وهي تنشر الغسيل، كانت تنفض كل قطعة مرتين، ثم تمدّها فوق الحبل كما تُفرش القصيدة، وتُثبّتها بمشابك خشبية متآكلة، كأنها تثبّت شيئًا من كرامتها المتعبة.

في الشتاء، كان الغسيل لا ينشف، يبقى مبلولًا...كذاكرتنا، وكان أبي يقول وهو ينظر إلى الملابس المبتلّة:

«إحنا مثل هذول...نُعلّق في الانتظار، لكن ما بنقع»

ذات ليلة، هبت عاصفة شديدة، الريح تزمجر، وسقف الصفيح يصدر صريرًا كأن المخيم كله يرتجف، وفي الصباح، خرجنا إلى السطح...الأشياء تبعثرت، تنكة الزيت انقلبت، باب الحمّام اقتلع...لكن حبل الغسيل ما زال في مكانه، يميل قليلاً...لكنه لم يسقط. ضحك أبي يومها، وقال:

«شايف؟ هالحبل من روح الناس...مش من نايلون»

مرت الأعوام، تزوجتُ، وسكنتُ في عمارة، اشتريتُ غسالة كهربائية، وحبال الغسيل على السطح أصبحت ذكرى، لكنّني، كلما شممت رائحة الغسيل النظيف، أرى أمي تقف تحت الشمس، تمسك القميص من طرفيه، وتنفضه بقوّة...ثم ترفعه إلى الحبل، وتعلّقه مع دعاءٍ صامت:

«اللهم ثبّتنا».

دفتر الرسم المجعّد

كانوا يسخرون مني... من دفتري، ومن رسومات،. دفتر صغير، لونه باهت، غلافه مقشور، وأوراقه منحنية كظهور الجدّات، أحمله في حقيبتي المدرسية المهترئة كأنه كنز لا يراه سواي.

في حصة «الرياضيات»، كنت أرسم. وفي «العلوم»، أرسم، وحين يُطفئ المعلم الضوء ليعرض شريحة، كنت أسترق الضوء المتسلل من الشباك لأظلل سماءي الزرقاء...التي لا غيم فيها، ولا زينكو.

رسمت بيتًا...لا يشبه بيتنا، له حديقة وشباك زجاجي، وسقف لا يطرق عليه المطر.

قال زميلي في المقعد:

«هاظا مش بيت لاجئ»

ابتسمت، وقلت:

«بس أنا ساكن فيه...هون»

وأشرت إلى قلبي.

رسمت الشمس رغم أن المعلم قال لي:

«ليش دايمًا شمس؟ ما بتحب المطر؟»

فلم أعرف كيف أشرح له أن المخيم في الشتاء لا يحب المطر، أن المطر ليس غناءً على الزجاج، بل تسريبًا على الوسادة.

في الدفتر، رسمت أبي يحمل صفيحة الكاز، رسمت أمي تُنشر الغسيل فوق حبل مائل، رسمتني واقفًا في الطابور أحمل بطاقة التموين، ورسمت السور... بس بدون طوبة، كأني كنت أُعيد ترتيب العالم، قطعةً قطعة، لكن كما أحب...لا كما هو.

جاء المفتش يومًا، مرّ بين المقاعد، أمسك دفتري، تصفحه باحتقار، وقال بصوت خالٍ من الدهشة:

«شو هالسخافات؟»

ثم رماه على الأرض.

دفترك سقط...لكنه لم يُكسر. جمعت أوراقه المجعّدة، ورسمت في الصفحة التالية:

طفل يشبهني، يلتقط دفتره عن الأرض، لكنه لا ينحني.

كبرتَ. نسيت الحساب، والقواعد، ومتى بدأ الاحتلال، لكنّي لم أنسَ خطوط قلمي، ولا الزاوية التي كنت أختبئ فيها في الفُرصة لأرسم، ولا الدفتر المجعّد.

اليوم، أجلس في مكانٍ بعيد، ومعي دفتر جديد، ورقة ناعمة، وأقلام غالية. أرسم المخيم كما لم أره...لكن كما شعرت به، ثم أفتح درج مكتبي، أُخرج دفتري القديم...وأقلّب صفحاته بلطف، أصل إلى أول رسمة، بيتٌ صغير، عليه اسم: «بيتنا».

فأبتسم، وأقول:

«بَعِدْ عايش»

الكوفيّة على مرآة التاكسي

لم تكن مرآة التاكسي عند (أبو محمد) أداة يرى بها الخلف... بل كانت مرآة يعلّق عليها الماضي، وفي وسطها، كوفيّة بيضاء وسوداء، مربوطة بعقدة تشبه القلب إذا اشتد عليه الحنين.

كان أبو محمد سائق تاكسي في المخيم، مرسيدس صفراء موديل ١٩٨٢، عرفها كل الناس، بصوتها المبحوح، والكوفيّة التي تلوّح من الداخل كراية لا تهدأ.

قال له مرة شرطي المرور:

«فكّ الكوفيّة...بتحجب الرؤية»

رد أبو محمد بهدوء فيه شوكة:

«هي اللي مخلّيتنا نشوف»

لم تكن الكوفيّة مزخرفة، ولا فاخرة، كانت عادية، لكنها حملت رائحة التبغ، ودفء العنق الذي انتظر عملًا، وذاكرة الطريق بين

الزقاق والشارع العام، وبين مدرسة الوكالة وسوق الخضار.

في صباحات الشتاء، كان أبو محمد يلفّها حول رقبته، ثم يعلّقها مجددًا على المرآة حين تشرق الشمس، وكأن الكوفيّة كانت بينه وبين التاكسي لغة خاصة. كانت تفهم غضّته حين يركب الزبون ولا يدفع، وتشارك ضحكته حين يُعطيه أحدهم زيادة، وكان يمسح بها بخار الزجاج، ويمسح بها عرقه، ويمسح بها ألمه دون أن يقول شيئًا.

جلستُ في المقعد الأمامي ذات يوم، كنا نغني سويًا:

«أنا الكوفيّة وهواها...يا بو الكوفية السودا!»

وأبـو محمد يهز رأسـه ببطء، كأنه يقول: «لسا ما خلصت الحكاية»

في أحد الأيام، رَكب شاب غريب التاكسي، نظر إلى الكوفيّة، وسأل أبو محمد:

«من وين اشتريتها؟»

فأجابه أبو محمد دون أن يلتفت:

«من دكّان الوطن...بس هسا مسكّر»

مرت سنوات...مرض أبو محمد، ولم يعد قادرًا على العمل،

ووقف التاكسي مثل تمثال منسي عند باب المخيم، إطاراتها متآكلة، وزجاجها مغبّش، لكن الكوفيّة لا تزال على مرآتها مهترئة، باهتة، لكنها لم تسقط.

وفي كل زيارة للمخيم، أمرّ بجانب التاكسي، أنظر إلى الكوفيّة، وأتذكّر أبو محمد، وصوته، وشوارع يعرف فيها كل حفرة...وكل وجع.

الكوفيّة على مرآة التاكسي...لا تزال هناك، تلوّح للريح، وتقول بلا صوت:

«لسّا راجعين».

صحن العدس البارد

في المساء، كانت أمّي تضع «الطنجرة» على الطاولة الصغيرة، تغرف العدس في صحون معدنية، وتهمس:

«كولوا قبل ما يبرد...ما في تسخين الليلة»

لكنّ أبي لم يكن قد عاد بعد، كنا ننتظر، ثم نأكل...دون شهية، وبقي صحنه ممتلئًا...وبرد.

في المخيم، صحن العدس ليس مجرد طعام، هو ميزان الوقت، وصورة الغياب، ودليلٌ على أن أحدهم تأخّر عن البيت، أو عن الحياة.

أبي كان سائق «سرفيس»، يتأخر أحيانًا بسبب أزمة، وأحيانًا بسبب زبون لا يملك أجرة الطريق، كانت أمي تقف عند باب البيت، تنظر من فتحة الزينكو إلى الشارع، وتقول:

«وين تأخّر؟ والعدس صار صخر»

ثم تغطي الصحن بكيس نايلون، وتضعه على الطاولة...ينتظر.

كان البرد يتسلل إلى الغرفة، والصحن على حاله، كأنّه قلب ينتظر دفئًا لن يأتي، وفي كل مرة، كنت أنظر إلى العدس البارد وأشعر أنه يعرف شيئًا لا نعرفه.

ذات ليلة، عاد أبي متعبًا...يده مجروحة من باب التاكسي، وصوته مبحوح من البرد، نظرت أمي إلى الصحن، وقالت له:

«برد...أسخّنه؟»

هز رأسه، وقال:

«لا...بارد بس بيشبِع»

ثم أكل بصمت، وأنا نظرت إليه، كأنني أتعلم من العدس معنى الصبر الصامت.

اليوم، في المدينة التي سكناها بعد الرحيل، صارت الطناجر لامعة، والطعام وفير، والميكروويف لا يترك شيئًا باردًا، لكنّني أشتاق لـذاك الصحن المعدني المصفرّ، الـذي حمل العدس والانتظار معًا.

وأحيانًا، أطبخ العدس في ليالي الـبرد، وأتـرك صحنًا على الـطـاولـة...دون تسخين، فقط لأتذكر أين كنّا، وكم كنّا نأكل الحنين...لا العدس فقط.

البطانية المرقّعة

كانت البطانية سميكة، ثقيلة، لكنها لا تكفي، فوق كل واحدٍ منا نصف بطانية، وحين ننام جنبًا إلى جنب، نشعر أنها توزّع دفئها بالتساوي...كأنها تعرف العدل الفقير.

بمرور السنين، اهترأ طرفها، وانشقّت في الوسط، وتآكلت من موضع القدم، لكن أمي لم ترمها، أحضرت قماشًا قديمًا، قصّت منه مربعات، وخاطتها على البطانية...واحدةً تلو الأخرى.

أصبحت البطانية مرقّعة، لكنها لم تفقد دفئها...بل صار أكثر عمقًا، رقعة من قميص أبي القديم، رقعة من فستان أمي في خطبتها، رقعة من بلوزتي التي كبرتُ عنها، كل رقعة كانت ذاكرة، كأننا كنا نتغطّى بماضينا.

في ليالي الشتاء، حين يصفّر الهواء بين ألـواح الزينكو، كنا نتحاضن تحتها، نضحك، ندفن أرجلنا، ونتشاجر على من سحب

البطانية من الطرف الآخر، كانت أمي تهمس وهي تغطينا جيدًا:

«هيّا ناموا...البطانية فيها بركة»

أذكر جيدًا ليلة انقطعت فيها الكهرباء، والمطر يقرع الزينكو كأنه غضب، كان البرد قارسًا، لكننا لم نبرد، كأنّ الرقع المخيّطة بيد أمي تحملت عنّا شتاء المخيم.

كبرنا، وغادرنا الزينكو، جاءت بطانيات أجنبية، أنيقة، ناعمة... لكنها باردة! وفي مرة، عدتُ إلى البيت بعد سنوات، وجدت أمي قد رتّبت أغراضًا قديمة في خزانة، فوقها تلك البطانية المرقّعة... مطويّة مثل كفنٍ مليء بالحب. فتحتها، وضممتها إلى صدري، وشممتُ فيها ريحة أمي، وصوت المطر، ودفء لا يشبه شيئًا في هذا العالم.

قلت لها:

«ليش لسا محتفظة فيها؟»

ابتسمت، وقالت:

«لأنها ما زالت بتدفّي...حتى لو ما حدا تحتها»

المشط ذو الأسنان المكسورة

في زاويـة الـرفّ الخشبي، بين علبة الفازلين، وعلبة الكاز الفارغة، كان يقيم المشط، بلا غطاء، بلا علبة، بلا ماركة، أسود باهت، خشن الملمس، تكسّرت أسنانه الأمامية من كثر ما سقط، أو ربما من كثر ما مرّ عليه الزمن.

مشط لم يكن جميلًا، ولا جديدًا، لكنه كان كل ما نملك، كُسر بمرور الأيام، لكننا لم نتخلَّ عنه...مثل أشياء كثيرة لم تكن كاملة، لكنها كافية، لكنه كان «مشط العائلة»، نمشّط به رؤوسنا قبل المدرسة، وأمي تمشّط به ظفائر أختي، وأبي يُمرّره على جانبي شعره كل صباح، ثم ينظر في مرآة مشقوقة من الطرف، ويهزّ رأسه.

كلما سقط من يد أحدنا، نحمله بلطف، ونتفقد إن كانت سنٌّ أخرى قد كُسرت، وحين تسأل أمي:

«كم سنّه ضَل؟»

نعدّها وكأننا نعدّ الأسنان في فم الجَدّ، فنضحك، لكنها لا تضحك. قال أبي مرة:

«هاد المشط رافقنا من البيت الأصلي»

فأخذته أمي من يده، وقالت:

«بس هاظَ من وكالة الغوث!»

فأجاب وهو يضحك:

«كل شي صار من الغوث...حتى نِحنا»

في الشتاء، كان المشط يُغسل بالماء الدافئ، تجفّفه أمي، وتلفّه بقطعة قماش كأنه كنز، كانت تخاف أن يتشقق أو يُكسر بالكامل، وكأنها تخاف أن نُفقد شيئًا آخر من الماضي.

أختي الصغيرة كانت تشتكي:

«عم يعلّق بشعري!»

وأمي تردّ:

«اصبري...مثل ما احنا صبرنا عليه»

فنفهم، دون أن تشرح، أن المشط ليس لتمشيط الشعر فقط، بل لتمشيط الذاكرة.

مرت السنوات، وجاءت مشطّات جديدة، بألوان، وبماركات، لكن لا أحد في البيت استطاع أن يرمي «المشط القديم»». تركناه في الدُرج، كذكرى باردة...لكنها ما زالت تمشّط أرواحنا.

واليوم، كلما أمسكتُ مشطًا حديثًا في حقيبتي، أتذكر ذاك القديم بأسنانه المكسورة، ورائحته التي اختلطت بالصابون الرخيص والكاز وعرق الحياة، وأقول لنفسي:

«مشطنا ما كان كاملاً...لكنه رتّب لنا فوضى الأيام، حتى لو جرح فروة رأسنا أحيانًا».

الصُوبة ذات الفتيل

في كل شتاء، كان يُبعث في البيت شعور بأننا مقبلون على حرب صغيرة...حرب ضد البرد، وضد تسريب الماء، وضد السقف الذي لا يحتفظ بالحرارة، وكانت الصُوبة ذات الفتيل، هي سلاحنا الوحيد.

كانت مربّعة، قصيرة، سوداء من الأعلى، تنبعث منها رائحة الكاز المخلوط بالذكريات. نشعلها فتسعل أولًا، ثم تنينّ، ثم ترمش بلهيب خجول، كأنها تقول:

«ها أنا... سأحاول ما استطعت»

أبي كان وحده يُتقن إشعالها، ينحني عليها، ينفخ في الفتيل، يعدل اللهب، ويهمس:

«لا تكثّروا الكاز...بتنخنق»

ثم يبتعد كأنّه سلّم النور إلى الكائن الصغير، الذي سيحمينا هذه الليلة.

حولها كانت الحياة تدور، أمي تضع إبريق الشاي على سطحها، أختي تجفّف الجوارب، أنا أمدّ يدي لأدفئ أصابعي، وأحاول تقليب الكتب بحذر...كي لا تشتعل.

كنا نعرف أن الصُوبة لا تُترك وحدها، إنها مثل طفلٍ شرس، يدفئك حين تحبه، ويحرقك إن أهملته، وفي ليالٍ كثيرة حرق طرف بطانية، أو سوّد الدخان وجه الجدار، لكن أحدًا لم يغضب؛ لأننا كنا نعرف: إن الفتيل المتعب...يبذل روحه من أجلنا.

أمي كانت تقول:

«ما في شتوية إلا وتحرقنا الصُوبه مرة»

فنضحك، لكننا في داخلنا نعرف أنها على حق.

في ليلةٍ باردة، انطفأت الصُوبة فجأة، أبي قال:

«الفتيل انتهى»

وركض إلى دكان «أبو عبد الله» قبل أن يُغلق، وعاد بفتيل جديد، وقطعة من الأمل في يده.

كبرتُ، وركبتُ مصاعد البيوت ذات التدفئة المركزية، وصرت أعيش في غرف لا تُصدر رائحة الكاز، ولا لهب فيها، ولا صفير،

لكنني حين تشتدّ العاصفة، أغمض عيني، وأرى أمي تقرّب يديها من المدفأة، وتهمس:

«الحمد لله عالدفا»

وأشتاق...أشتاق لصوت الفتيل حين يشتعل، وللون اللهب البرتقالي، ولقلقنا الطفولي من أن تنطفئ الصُوبة فجأة، فنرتجف كلنا مثل شموع صغيرة.

وأسأل نفسي: هل كانت الصُوبة فعلًا تدفّئنا؟

برّاد الشاي المحروق

كان أسود، لا لمعان فيه، يحمل ندوب النار والسهو، ومقبضه يهتز كلما غَلَى...كقلب أمٍّ تنتظر ابنها من بعيد.

كنا نعرفه أكثر مما نعرف وجوهنا في المرآة، هو نفسه الذي يُغسل دون أن يلمع، ويُستخدم دون شكوى، ويُسكب منه الشاي في أكواب لا تتطابق.

لم يكن «برّاد الشاي» فقط، بل صديق الشتاء، وضيف السهرات، وقصيدة بخارٍ يعلو فوق رؤوسنا كدعاء.

في المخيم، كل بيت عنده برّاد شاي محروق... واحد فقط، لا غير. يقول أبي:

«اللي بينحرق مرة، ما عاد بيخاف من النار»

فنضحك، ونعرف أنه لا يقصد البرّاد وحدها.

في كل ليلة شتوية، كان أبي يملؤه بالماء، ويضيف ملعقتين

من الشاي، وبعضًا من النعنع اليابس، ويضعه على الصُوبة ذات الفتيل، ثم يبدأ صوته... صوت الغليان الأول، صفيره الخافت، رائحته التي تختلط بالكاز، كأنه يُعلن أن الليل بدأ رسميًا.

كنا نتحلّق حوله، الصغار بأكوابهم الصغيرة، والكبار بسجائرهم، والجَدّة بحكاياتها، التي تُعيدها كل مرة، ولا نمل.

ومرّت سنوات، أُهمل البرّاد، حلّ مكانه «إبريق كهرباء» يشبه الروح الباردة، لكنّ أمي احتفظت به في زاوية المطبخ، ملفوف بكيس نايلون، أسود كما هو...لا يزال برائحته.

وحين زرت البيت في أحد الأعياد، قلت لها:

«يمّا...بعدو عندك البرّاد القديم؟»

أجابتني كمن تُذكّرني بأصلنا:

«هاظ مش برّاد...هاظ ذاكرة بتغلي»

أخذته بيدي، فتحت الغطاء، وشمّت ما بقي من زمن فيه، وشعرتُ أن صوته ما زال في أذني:

صفير، وحكاية، وحنين، ورشفات دافئة مع بَرْد الزينكو.

كل بيت فَقَدَ كثيرًا من أشيائه، لكن بعض البرّادات لا تُرمى؛ لأنها تحمل أكثر من شاي: تحمل رائحة أهل...وضوء نار... ووقت ما كان حدا مستعجل.

باب لا يُغلق إلّا بحجر

في بيتنا في المخيم، كان الباب لا يُغلق جيدًا، خشبه من نوع رخيص، مفصلاته تصدر أنينًا، ومقبضه يسقط أحيانًا حين يُدار، لكننا أحببناه كما هو.

كان أبي يقول:

«ما في داعي للقفل...الحرامي هون ما بيلاقي إشي يسرقه»

فنضحك، ونضع الحجر الكبير خلف الباب...الحارس الصامت، ذاك الحجر الرمادي، كأنه يعرف مهمته جيدًا. ندفعه بقدمنا حين ندخل، نزيحه قليلًا حين نخرج، وفي الليل، نُسدّ به الباب كمن يُسدّ فراغًا في الصدر.

مرّت سنوات، والباب لم يُصلّح، لا لعدم القدرة، بل لأن الحجر صار جزءًا من الطقس. حين كبرنا قليلًا كنا نسمع الجيران يصرخون على أطفالهم:

«سكروا الباب منيح! حطوا حجر!»

حتى صار الحجر عادة مخيم، مثل «الفرن»، ومثل «الصُوبة ذات الفتيل»، ومثل «صف الطوابير على مطعم الوكالة».

بابنا كان يفتح من أقل نسمة، وكنا نستيقظ أحيانًا على صوت الريح تجرّه، فيرتطم بالجدار، فتنهض أمي من تحت البطانية، تمشي حافية، وتسدّه بالحجر مرة أخرى، ثم تعود إلينا وتهمس:

«ناموا...بَعِدْ ما حدا دخل»

كبرتُ...انتقلنا إلى بيت جديد، بأبواب تفتح وتغلق بصوت ناعم، بمفاتيح لامعة، بأقفال حديدية حتى لكنني لم أشعر بالأمان.

كنت أشتاق لذاك الباب الرديء، وذاك الحجر الثقيل، وتلك الطمأنينة الغريبة التي تقول لك:

«نحن لا نحمي أنفسنا بالجدران...بل ببعضنا»

وحين زرت المخيم في الشتاء، مررت من أمام بيتنا القديم، فرأيت الباب كما هو، والحجر كما تركناه، نفس اللون، نفس الوضعية، كأنّه لم يتحرّك إلا قليلاً ليحمي عائلة غيرنا.

رفعت الحجر...شممت تحته رائحة البلل، وشيئًا من طفولتي، ثم أعدته بلطف في مكانه، وغادرت، وأنا أقول في سرّي:

«بعض الأبواب، حتى لو لم تُغلق جيدًا قد أبقتنا آمنين، أكثر من كل الأبواب المحكمة».

مروحة السقف التي لا تدور

لم يكن في الغرفة شيء يتحرّك، حتى الذباب بدا متردداً في أن يمرّ عبر النافذة المكسورة، كل شيء صامت، ساكن، كأن الزمن نفسه علق بين جدرانٍ من زينكو صدئ. في السقف، علّقت أمي مروحة بيضاء، أو كانت بيضاء في زمنٍ ما، قبل أن تكتسي بطبقة سميكة من الغبار وتستسلم لليأس مثلنا، لا أحد يذكر متى توقفت عن الـدوران، ربما منذ انقطعت الكهرباء، أو ربما منذ تعطل المحرك، أو لعلها فقط تعبت... مثلنا.

كانت أمي تنظر إليها كل ظهيرة، عندما يتسلل الحرُّ إلى عظامنا، وتتمتم:

«لو بس تدور... شوي، بس شوي»

كأنها تدعوها للصبر، أو تستجديها أن تتذكّر وظيفته، وكنا نضحك، رغم أن الضحك لم يكن في محله، لكن ماذا تفعل في

مخيم لا يمنحك إلا القليل من الهواء، والكثير من الانتظار؟

في الليل، عندما تهدأ الأصوات، كان صوت أنين الحديد يتمدد فوق رؤوسنا، وكان أبي يشير إلى المروحة ويقول:

«هاي مش مروحة، هاي شاهد على الوقت اللي وقف»

ثم يغرق في صمته.

ذات مرة، جاء إسحق الكهربائي، ونظر إليها، ثم قال بهزّة رأس:

«بدها تغيير، مش تصليح»

لكن لا أحد في المخيم يملك رفاهية التغيير، نحن نرقّع ما تبقى من أشيائنا... حتى أرواحنا نرقّعها بالدعاء.

كبرنا، وكبرت المروحة معنا، لم تشتغل يومـًا، لكنها بقيت هناك، مثل أمل لا يريد أن يموت، وكلما دخلتُ الغرفة، رفعت عيني إليها، كما كنت أفعل وأنا طفل، وفي كل مرة، كنت أشعر أنها تنظر إليّ أيضـًا، وتقول شيئـًا لا يُقال، تذكّرني أن الهواء قد لا يأتي من الخارج، لكننا ما زلنا نحتاج أن نحلم به.

في المخيم، لا ننتظر المعجزات، ننتظر فقط أن تدور المروحة، ولو لمرة واحدة.

رغيف الخبز الساخن

كان المخيم يستيقظ على صوت خطوات الأمهات قبل أن تشرق الشمس، يعلو همس الدعوات، وصوت الصفائح تُسحب لتفتح الأبواب، ثم يبدأ الطابور أمام المخبز الوحيد، تمامًا كما كان يحدث كل صباح.

كنت أستيقظ على رائحة الخبز قبل أن أفتح عينيّ، كانت أمي تضع الرغيف في قطعة قماش نظيفة وتهمس لي:

«اصحَ، الخبز بَعده سخن»

وكأن السخونة كانت شيئًا يجب ألا يفوّته أحد، لا بسبب طعمه، بل لأنها لحظة نادرة من الدفء في حياة باردة.

في الطفولة، لم نكن نعرف معنى «حياة صعبة»، كنا نركض حفاة، ونضحك، ونقسم الرغيف بيننا بعد المدرسة كأنه كنز.

كان الرغيف ساخنًا، طريًا، فيه ما يكفي من الحنان ليُنسينا

الحصص الفارغة والكراسي المكسورة، لكن مع الوقت، بدأنا نرى، رأينا أمّي تعدّ الأرغفة، تقسمها بعين الميزان، لتضمن أن يكفي الجميع.

خمسة أرغفة، تسعة أفواه، وحصة الأب محفوظة، حتى لو تأخر.

في مرة، تأخر الخبز، كان الفرن معطلاً، والدقيق شحيحًا، والناس متكدّسين، عدتُ إلى البيت بلا شيء، نظرت إليّ أمّي وقالت بهدوءٍ مخيف:

«ما عليه، بنسوّي شوربة عدس»

ثم فتحت خزانة فاضية تقريبًا، وسكبت ماءً في (الطنجرة).

رغيف الخبز الساخن لم يكن مجرد طعام، كان دليلاً على أن الحياة لم تنهزم بعد، كان علامة أن أمّي ما زالت تقوى على الوقوف، وأن الفرن ما زال ينبض، وأن الطحين قد وصل.

كبرت.

أصبحتُ أعود إلى البيت في المساء، وأشتري الخبز في طريقي، في مرة دخلتُ البيت، وضعتُ الأرغفة على الطاولة، وقلت لأمّي:

«بَعِد سخنين»

ابتسمت، ودمعت عيناها، فهمتُ أنها لم تكن تبكي من الخبز... بل من كل السنين التي مرّت دون أن يبرد قلبها، رغم أن كل شيء حولها كان بارداً.

في المخيم، لا نطلب الكثير، نكتفي أحياناً برغيف خبز ساخن.

لعبة تحت الدرج

لم يكن تحت الدرج سوى غبار، بعض الكرتون المبتل، ورائحة الرطوبة القديمة، لكن بالنسبة لنا كان مملكة، كنا ثلاثة: أنا، وأحمد، وهيام. نجتمع هناك بعد العصر كل يوم، عندما تُصبح الشمس أخف، وتبدأ أصوات الأمهات بالتصاعد من النوافذ.

تحت الدرج، فرشنا قطعة سجادة مقطوعة من طرفها، وعُلّق فوقنا كيس نايلون مليء بألعاب مكسورة: سيارة بلا عجلات، دمية بعين واحدة، مكعبات من نوعين مختلفين لا يركبان على بعض، لكننا لعبنا بها كما لو كانت كنوزًا حقيقية.

نصنع بيوتًا من الكرتون، نوزّع الأدوار: هيام كانت الأم، أحمد يذهب لمدرسة الوكالة، وأنا أبيع النعنع كله.

أحيانًا نلعب بصمت، وأحيانًا نصرخ، فنُطرد مؤقتًا من تحت الدرج حتى نهدأ.

تحت ذلك الدرج، حلمتُ للمرة الأولى ببيت فيه درج حقيقي، وسقف لا يطرق عليه المطر، وباب يُغلق من دون أن نحشر تحته حجرًا.

مرة، سأل أحمد:

«ليش دايمًا بنلعب تحت الدرج؟»

فأجابت هيام:

«لأنه المكان الوحيد اللي فاضي إلنا»

ضحكنا، كأنها نكتة، لكنها لم تكن كذلك.

كبرنا.

انشغل أحمد بالعمل، وهيام انتقلت إلى مخيم آخر.

وبقيتُ أنا أمرّ من جانب الـدرج، أُلقي نظرة، فأجد المكان كما تركناه: كرتون مهترئ، غبار، وزاوية صغيرة ما زالت تحمل بصمات أيدينا، لكن أحدًا لم يَعُد يلعب هناك.

في المخيم، نخلق الفرح من العدم، نزرع الضحكة في الأماكن التي لا تصلها الشمس، حتى لو كانت تحت الدرج.

حذاء عالق في الطين

في كل شتاء، حين ينهمر المطر على المخيم، لا يُولد الربيع كما في القصائد، بل تُبعث المعاناة من نومها الثقي،. الطين هنا ليس لونًا على اللوحات، بل شيءٌ يبتلع الخطوات، ويُقاوم الإرادة.

في صباحٍ رماديّ، كانت أمي تقف عند الباب، تُنادي:

«شدّ حالك، المدرسة ما بتنطر»

نظرتُ إلى الطريق الموحلة، ثم إلى حذائي الذي بالكاد يستر قدمي، وقلت:

«رح أغرق»

ضحكتْ. كانت ضحكتها مثل عُصفور بللته السماء، خفيفًا، لكنه لا يطير.

«إغرق بس لا تتأخر، التعليم سلاح الفقير»

لبستُ الحذاء المرقّع، الـذي يشبهني: تعِب، لكنه يُكمل الطريق. خرجتُ، فغاصت قدمي في الوحل من أول خطوة، كان الطين يُقبض على قدمي، لا تريد أن تتركني أرحل، كلما حاولت التقدّم، شعرتُ أن الأرض تُفاوضني:

«إما أن تبقى، أو تدفع الثمن»

لكنني كنت أريد أن أصل، المدرسة لم تكن مبنًى إسمنتيًا فحسب، كانت وعدًا بأننا لن نظلّ هنا إلى الأبد، وأن المخيم ليس نهاية الجملة.

عند الـزاويـة، غـاص حذائي بالكامل، سُحب كما تُسحب الذكريات إلى قاع النسيان، توقفت، نظرت إليه، نصفه في الأرض، ونصفي الآخر مُعلّق في السؤال: هل أتركه وأكمل؟ أم أعود وأنقذ قدمي من البلل، وقلبي من البلادة؟

انحنيت.

يدي كانت ترتجف من البرد، لكنني أمسكت بالحذاء كأنني أُمسك بفكرة، بكبرياء، بشيء لا يجب أن أتركه خلفي، نزعتُه من الطين بقوة، وواصلت المشي.

بجوربٍ مبلول، وروح لا تقبل أن تُهزم وصلت المدرسة، لم يسألني أحد عن حالي، لم يلحظوا الطين على سروالي، ولا

ارتجاف يديّ، لكنني كنت هناك، وجلست في مقعدي، كأنني انتزعت حقي في المستقبل من بين أنياب الأرض نفسها.

في طريق العودة، حملت الحذاء في يدي، وكان ثقيلاً... ليس لأنه ممتلئ بالطين، بل لأنه يحمل قصة لم يرها أحد.

في المخيم، لا نمشي على الأرض فحسب، بل نخوض معارك مع الطين، مع الغرق، مع الحذاء الذي قد يُسحب منك في منتصف الطريق، ولا أحد يلاحظ غيابك.

علبة سردين واحدة

في منتصف الطاولة، كانت علبة سردين واحدة تستقرّ كأنها ضيف ثقيل في بيت ضاق حتى على أفراده، لم تُفتح بعد، لكنها أخذت مكانها كما يأخذ الملوك عرشهم: صامتة، صغيرة، لامعة، وخطيرة.

لم تكن العلبة جديدة، كان الغلاف باهتًا من كثرة ما تنقّلت بين الخزائن، كأنها تنتظر لحظة إعلان الطوارئ، يومها قالت أمي بهدوء يشبه الانكسار:

«بنفتحها اليوم... ما ضل شي»

ثم نظرت إلينا نظرة لم نفهمها حينها، لكننا شعرنا بها تتسرّب تحت جلد الكلام، كنا أحد عشر حول الطاولة، كل واحد جلس بطريقة تجعل جسده أصغر، لعل الجوع يصدّق أننا أقل مما نحن عليه، أبي مدّ يده، وفتح العلبة ببطء، صدر صوت معدنيّ حادّ، كما لو أن الألم قرر أن يُعلن عن نفسه.

خرج الزيت أولًا، ثم رؤوس السمك الصغيرة، مصطفّة كجنود في قاع معركة خاسرة، لم يتكلّم أحد، السكين التي أمسكتها أمي كانت تُشبه نصلًا في يد جراحٍ لا يملك مخدرًا، قطّعت كل سمكة إلى شرائح لا تُرى، وغمّستِ الخبز اليابس في الزيت كما لو كان ذهبًا سائلًا، نصيب كل فرد لقمة، لقمة واحدة.

لكنّ العلبة لم تكن فقط طعامًا، كانت اختبارًا: هل يمكن للكرامة أن تُقسم إلى أحد عشر؟ هل يمكن للمحبّة أن تُبلَع بلا ملح؟ هل يمكن للجوع أن يخرس كل الأصوات... إلا صوت أمي وهي تقول:

«كُول، صحتين»

كأنها لم تُحرم شيئًا، كأنّ المائدة عامرة، كأننا في عيد، بلعتُ حصتي، ولم أتذوّق شيئًا، ليس لأن الطعم معدنيّ، بل لأن قلبي كان مشغولًا بسؤال واحد:

«هل أمّي أكلت؟»

نظرتُ إليها، فوجدت أمامها صحنًا فارغًا، تظاهرت أنها شبعانة، وأنا تظاهرت أنني لا ألاحظ.

بعد العشاء، جلستُ قربها، وضعتُ رأسي في حضنها، وسألتها:

«كنتِ بتحبي السردين وإنتِ صغيرة؟»

ضحكت.. ضحكت كما تضحك البلاد المنكوبة عندما تراها الكاميرا، ثم قالت:

«كنت أحبك وأنت صغير، وبَعِد بحبك»

في المخيم، لا تقاس الولائم بعدد الصحون، بل بعدد القلوب التي تُجيد اقتسام القليل، دون أن تُفقد أحدًا شيئًا من كرامته.

كانت علبة سردين واحـدة، لكنها في تلك الليلة، أطعمت عشر... وشبعت بها الروح الحادية عشرة: أمّي.

العتمة التي حفظنا وجوهها

في المخيم، حين تنقطع الكهرباء، وهي دائمًا تقطع، لا نُشعل الشموع فورًا، ننتظر قليلًا، نمنح العتمة وقتها، كما لو أنها ضيف قديم له مكانه في البيت، لا يجوز طرده بالضوء هكذا، دون مجاملة.

في العتمة، لم نكن نرى بعضنا، لكننا نعرف مَن يجلس وأين. نعرف أن أمّي ستتلمس الحائط حتى تصل إلى الطنجرة، وأن أبي سيجلس عند الزاوية، يُدخّن لفافة الهيشي، وينفث دخانًا لا يُرى... لكنه يُشَمّ.

العتمة في بيوتنا ليست عابرة، إنها جزء من أثاث المكان؛ كالصفيح فوق رؤوسنا، والماء المقطوع، والصبر المعلّق على المسمار.

كنا صغارًا، نخاف الظلمة، ثم كبرنا... وصارت الظلمة هي من تخاف أن نغادرها، أتذكّر جيدًا تلك الليلة التي انقطعت فيها الكهرباء بينما كنا نأكل. نصف الرغيف بقي في يدي، وقطعة

بندورة على طرف الطبق، لكننا لم نتحرك، ظلّ كل شيء كما هو، بدأنا نتحدّث، صوت أبي خرج من قلب العتمة، عميقًا، غير معتاد، كأنه لم يتحدث إلا حين اختفى الضوء، سألني عن المدرسة، وسألت أمي عن وصفة المقلوبة، وضحكنا، بصوت فقط، دون أن نرى بعضنا.

لم نكن بحاجة للنظر، كنا نحفظ وجوه بعضنا عن ظهر قلب، وعن ظُهر عتمة، العتمة ليست ظلمة فقط، هي لون آخر للوجود، حين يُطفئ الضوء كل شيء خارجي، تُضاء أشياء داخلنا.

كنا نحفظ وجه جَدّي، رغم أنه رحل ونحن صغار، لكننا نراه، كل مرة، حين تنقطع الكهرباء، يعود على شكل سعال خفيف، أو تنهيدة، أو شتيمة صغيرة من الزمن الماضي.

ذات مرة، جربت أن أغمض عيني في وضح النهار، فشلت في رؤية أمّي كما أراها في العتمة. العتمة كانت أكثر صدقًا من الضوء، الضوء يُخفي أحيانًا ما لا يجب أن يُرى.

كبرنا، والكهرباء صارت تأتينا ساعات محدودة، لكننا لم نَعُد نُطفئ الشموع فور عودتها، صارت العتمة لنا ذكرى تُضاء من الداخل.

وجوه أحبّتنا لم نَعُد نراها كما كانت، لكننا ما زلنا نراها في العتمة... العتمة اللي حفظنا وجوهها، وحفظت وجعنا.

شباك يُطلّ على حيط

كان عندنا شباك... أقصد فتحة إسمنتية مربّعة، فيها شبك حديدي، وغطاء خشب مائل، لكننا كنا نُسمّيه شباك، ولأنه كان الشباك الوحيد في الغرفة، كنت أجلس تحته كل يوم، وأحدّق.

في ماذا؟ في الحيط المقابل: جدارٌ صامت، باهت اللون، لا باب فيه، ولا شباك. كنتُ أراقبه كما لو كان فيلمًا، أنتظر أن يتحرّك، أن يُخبرني بشيء، أن تظهر عليه يدٌ، أو ظلّ، أو حتى حمامة تتعثر فيه، لكن الحيط لا يفعل شيئًا... هو فقط واقف هناك، مثل قَدَرٍ صغيرٍ يُطلّ علينا من الخارج.

في البداية، كان الأمر مُضحكًا. أقول لأمّي:

«ليش شباكنا بيطلّ على حيط؟»

فتضحك وتردّ:

«الحمد لله إنو في شباك»

ثم تتابع ترتيب البطاطا أو تعليق الغسيل على الحبل المشدود بين الجدارين. مع الوقت، صار الحيط وجهًا أعرفه، صديقًا غليظًا لا يتكلم، كان في تجاعيده لون رطوبة قديمة، وفي قلبه شرخٌ رفيع، مثل ندبةٍ خجولة لا تلتئم، كنت أرسم عليه أحلامي، أضع فيه شباكًا من خيالي، وبابًا يُفتح على حديقة، وسماءً خلفه تنادي، لكن الحيط لم يتزحزح، ظلّ واقفًا، حجارةً فوق حجارة، يذكّرني أن بعض الأبواب لا تُبنى أبدًا.

كبرت، وكبر الحيط معي، صار أضيق، أو ربما أنا من اتّسعتُ أكثر من المسموح، ولمّا حاولت أن أكتب، جلستُ كعادتي تحت الشباك، وحدّقت فيه، لم أجد فيه شيئًا جديدًا، لكنني فهمت شيئًا قديمًا، أننا لا نطلّ من النوافذ لنرى فقط، بل لنُرى، والحيط... لا يراك.

ورقة ناقصة من الحكاية

في دفتر العائلة، اسمي موجود، لكن في الهويّة... لا، كأنني وُلدتُ في حكاية لم تكتمل، أو سُقِطت سهواً من الصفحة الأخيرة، كل ما فيّ يدلّ على أنني حيّ: يدي تكتب، قدمي تركض في زقاق المخيم، قلبي يخاف حين تُغلق أبواب الليل، لكنّ الورقة التي تقول إنني هنا... ناقصة.

أبي، حين يذهب لتجديد الأوراق، يحملني معه، لا لأنهم يحتاجونني، بل ليُثبت أنني لست خيالًا. يجلس في الممر، يخرج الأوراق واحدة تلو الأخرى، كمن يفتّش في قلبه عن شاهدٍ يقول:

«هذا ابني... صدّقوني»

لكن الموظف لا ينظر في العين، ينظر إلى الشاشة، ويقول:

«الاسم مش مسجّل»

في المدرسة، يعرفون اسمي، في الحارة، أنادى به، لكن في الحدود... أُسمّى بـ»مجهول مرافِق».

أمي تحفظ اسمي عن ظهر غيمة، تنطقه في دعائها، تخيطه على قماش ملابسي القديمة، لكنها لا تجده على ورقة الدولة. سألتها ذات مساء:

«ليش اسمي مش مكتوب في دفتر العائلة؟»

قالت، وهي تطوي الغسيل بنعومة باردة:

«يمكن لأن دفتر العائلة أضيق من إنك تدخل فيها... أو يمكن لأنك أكبر من دفتر»

ضحكت، لكنها كانت ضحكة تجرّ ورائها تنهيدة، أنا موجود، بصوتي، بصورتي، بكوبي المكسور تحت السرير، لكن الدولة تقول: لا. المخيم يقول: نعم، وأنا واقف بين الجدارين... لا أنتمي بالكامل لأي جهة.

حين أكبر، سأصنع هويّة من شيء آخر، من صوت عبد الحليم في راديو قديم، من مفتاح بيتنا اللي ضاع، من ذاكرة جَدّي التي ما خُتمت بخروج رسمي.

سأكتب اسمي بوضوح، على حيط البيت، على ظهر دفتر المدرسة، وعلى باب الصف، وسأقول:

«أنا السطر الناقص في الورقة، لكنّي الجملة الكاملة في الحياة».

وحل الطفولة

في المخيم، مدرسة الوكالة ليست مبنًى حجريًا مزخرفًا، ليست صفوفًا مرتبة ولا ساحة واسعة، بل هي بركسات تشبه مزارع الدجاج، تنام تحت السماء، تغطيها أيامنا التي تترنح بين المطر والوحل، كلما هطل المطر، تتحول تلك المدرسة إلى بحر صغير، تذوب فيه أحذيتنا، وتغرق أحلامنا، ونصبح أطفالًا بين طينٍ يلتصق بالجلد، ويكتب على أقدامنا قصة الصبر المبلّل.

كانت الأرض تلعب معنا لعبة لا نعرف قواعدها، تمتص أقدامنا، تسحبنا برفق لكنها بلا رحمة، وكأن الطين يقول لنا:

«أنا هنا، لن تستطيعوا العبور بسهولة»

عند بوابة المدرسة، يصطف أطفال يضحكون رغم السواد، يحاولون عبور البحيرات الصغيرة، يرمون أحذيتهم بعيدًا، يركضون حُفاة، يحلمون بقفزات ترفعهم فوق وحل الواقع.

في الصفوف، تنساب رائحة الـتراب، تختلط برائحة الكتب القديمة، والأقلام المكسورة، وعلى الطاولات، تُطفئ قطرات المطر ألواننا، تغسل الحبر، فتتلاشى الحروف، كما تتلاشى الأحلام أحيانًا.

المعلم ينظر إلينا بعينين تحكي أنه يعرف، أن الطين ليس مجرد طين، بل أعباء الحياة الثقيلة، يحاول أن يُعلّمنا، أن يزرع فينا أملًا، لكن الطين يُردّد صوته: صمت، لا تتكلموا.

نحن لا نتعلم فقط من الكتب، نحن نتعلم كيف نقاوم، كيف نثبت، كيف نحافظ على الأمل حتى وإن غرقنا في الطين، وكيف نصنع من كل خطوة، صوتًا يقول: أنا هنا، لا تنسَاني.

حين يعود المطر، نعلم أن المدرسة ستتحول إلى بحيرة جديدة، لكننا نعود، نغسل أحذيتنا ونكوي الثياب، ونستعد لنطير فوق الطين؛ لأننا نؤمن أن الغد ليس طينًا فقط، بل حلمًا كبيرًا، لا يبلله المطر.

لوكس أبو شنبر

كان الضوء الوحيد في الغرفة... ليس نجفة معلّقة، ولا لمبة موصولة بسلك أبيض أنيق، بل لوكس قديم، بطنه منتفخ بالكاز، ورقبته الحديدية معقوفة كأنه يحمل عتابًا من زمن مضى، ورأسه يتدلّى كالمتعب الذي ما زال يحرس الليل. يسمّونه في الحارة «لوكس أبو شنبر»؛ لأن له شنبرًا أبيض متدلي من رأسه، كنت أشعر أنه يشبه عمّي المسنّ: صوت طقطقته يشبه سعاله، ورائحته تشبه ملابسنا حين تنقطع الكهرباء.

كل مساء، يشعله أبي، بضغطة يد وعود ثقاب من كبريت الثلاث نجمات، فينبعث منه ضوءٌ أصفر قوي، يكشف وجوهنا، ويجمعنا حوله كأننا نلتفّ حول قلب ينبض في العتمة.

اللوكس لم يكن فقط ضوءًا، كان شاهدًا على القصص، حين تحكي أمّي حكاية بيتنا في الظلال، تتحرّك يدها، ويرتجف ظلّها على الحيط، فينقسم البيت إلى نصفين: واحد منها يُحلّق، والآخر

يغرق.

وكان اللوكس يرتجف حين تهبّ الريح، كأنّه يخاف أن يُطفأ، فيضع أبي كفّه خلفه ليحميه، كما لو أنه يحمي الحلم من الانطفاء، أحيانًا، ينطفئ فجأة، فيصرخ أخي الصغير:

«العتمة أكلت اللوكس!»

فتضحك أمّي، وتقول:

«لا، بس أبو شنبر عطشان»

ثم تُحضِر قليلاً من الكاز، كأنها تسقيه ليعود يحكي من جديد.

لوكس أبو شنبر ما زال في زاوية الغرفة، لم نَعُد نشعله بعد أن جاءت الكهرباء، لكنه ما زال هناك، صامتًا، لكنّه مضيء في الذاكرة، ليس فقط لأنه أضاء الغرفة، بل لأنه أضاء أيامًا كاملة من طفولتنا، حين كانت العتمة تحفظ وجوهنا، والنور البسيط يعرف أسماءنا كلها.

اللامظة

كانت في زاوية السقف، معلقة بخيطٍ رفيع، ترتعش كأنها على وشك السقوط، تضيء بصمت، ثم تنطفئ فجأة، ثم تعود، كأنها تتذكر شيئًا...ثم تنساه.

نسميها «اللامظه»، لكنها كانت أكثر من مجرد لمبة ضعيفة، كانت عيْن البيت، ترى تعبنا، وتغفو حين نغفو.

في المخيم الكهرباء كالحُبّ في زمن الحرب: تأتي بلا موعد، وتغيب بلا وداع، لكن اللامظة كانت كتابًا، تبقى معنا حتى بعد أن تنقطع الكهرباء، تبقى في ذاكرتنا.

كانت أمي تطلب منّا ألّا نلعب تحتها؛ لأنها «رح تنفجر فوق راس حـدا!»، فصرنا نلعب حولها، نراقبها كلما خفت نورها، ونهمس لبعضنا:

«اللامظة زعلت»

كانت ترتجف فجأة، فيصدر منها صوت خفيف، صوت يشبه تنهيدة، كأنها تقول:

«أنا آسفة، ما قدرت أكمل الليلة»

أبي كان يُبدّل فتيلتها كل شتاء، يحمل سلّمًا حديديًا، ويقترب منها بحذر، كمن يبدّل نجمًا صغيرًا، ويقول لنا، بصوت ساخرٍ من الحياة:

«هاتولي لامظة بتتحمّل المخيم»

أحيانًا، كانت تضيء وحدها في منتصف الليل، بلا سبب، بلا كهرباء، فنفتح عيوننا، نظنّها معجزة، أو زيارة من جَدّتي التي رحلت عن الحياة، أو ربما مجرد خطأ في النظام... مثلنا.

الآن، بعد أن كبرنا، لم نعد ننظر إلى اللامظة، فوق رؤوسنا لمبات نيون، وواجهات LED، لكنّ ضوءها الخافت ما زال هناك، في الذاكرة، في الحنين، في صورة قديمة بالأبيض والأسود، حيث يجلس كل شيء تحت نورها المرتعش.

اللامظة لم تكن تنير الغرفة فقط، بل كانت تنير هشاشتنا، تفضح تعبنا، وتُضيء لنا طريقًا واحدًا: أن نستمر، ولو بنورٍ خافت.

رسالة من الخارج لا تصل

جلست على الطاولة القديمة، ورقة بيضاء أمامي، وقلم يتهرب من أصابعي. كنتُ أنتظر رسالة، رسالة من الخارج، من حيث لا تصل الأصوات، ولا تخترق الجدران سوى الأمل.

أرسلتها مرة، لكنها تاهت في البحر، علّها غارقة في موجةٍ من الانتظار، أو ضاعت بين رسائل كثيرة، لا يجدها إلا من يملك عينًا ترى المستحيل.

أكتب وأمحو، أُعيد تشكيل الكلمات كما تُعيد الريح ترتيب الأوراق، لكن الرسالة تظلّ بلا عنوان، كما لو كانت موجهة إلى قلبٍ لا يسمع، إلى شخصٍ لا يدري أن هناك من ينتظره.

في الخارج، هناك حياة أخرى، حيث لا تعرف وجوهنا أحد، ولا يحملون أسماءنا، ولا يسألون عن الصمت الذي يلفّنا.

كل حرف في الرسالة كان يكتب دمعة، وكل كلمة كانت تصرخ

صمتًا، لكنها توقفت عند الحاجز، بين هنا وهناك، بين أملٍ لا يموت، وخيبةٍ لا تُرى.

رسالة من الخارج لا تصل، هي صدى صوتي الذي يتردد في الهواء، كأنه طائر محاصر بين قضبان الزمن، يريد أن يحلق، لكن لا أحد يفتح له الباب.

فكرت أن أرسلها عبر الريح، أو أخبئها في زجاجة ألقاها البحر، لكن البحر كبير، والرسائل صغيرة، والأمل أحيانًا يصبح كذبة جميلة نرددها في الظلام.

ورغم ذلك، سأكتب رسالة أخرى، بخط أملٍ جديد؛ لأن الصمت أخطر من الرسائل التي لا تصل، ولأن في كل كلمة تبقى حياة تنتظر أن تُسمع.

بقايا مولوتوف

خلف الخزان، حيث يلتقي الخراب بالحنين، يتكسر الصمت على قطع زجاج ملتهبة، بقايا مولوتوف، كالجمر الذي لم ينطفئ، حتى حين خمدت النار، ظلّت تحكي عن ليلة لم تنسَها الأرض.

كانت القنينة زجاجية، رقيقة كقلب طفل، ولكنها كانت تحمل داخلها غضبًا مشتعلًا، نارًا حمراء، تندلع من بين الأصابع، تدافع عن حلم، عن أرض، عن حياة.

ها هي الآن، مرمية بين الأعشاب اليابسة، كجثة نسيها الزمن، لكنها ما زالت تنبعث منها رائحة الحرق، وكأنها تقول:

«لم يمت الغضب، بل صار رمادًا يطير في الهواء»

في الصباح، يمر الأطفال بجانبها، لا يرونها، لكنهم يشعرون بظلها في الهواء، في وجوههم المتعبة، في أقدامهم التي تخطو بحذر على التراب.

المقاومة ليست فقط في النار التي تشتعل، بل في الرماد الذي يبقى في الأثر الذي لا يمحى، في الأشياء الصغيرة التي تحمل قصصًا كبيرة.

الخزان الكبير يقف كحارس صامت، يحتوي بين جدرانه تاريخًا، ولفظات نار وأحلام محترقة، لكن خلفه بقايا مولوتوف، تروي قصة رفض الصمت، وقصة وطن ما زال ينبض رغم الرماد.

صدر للمؤلف في القصة القصيرة:

- هذيان ميت، قصص، مطبعة السفير، عمّان، ٢٠٠٦م.
- أبي والشيخ، قصص، دار اليازوري للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٠٧م.
- ذات صباح، قصص، عمّان، ٢٠١٨م.
- أنفاس مكتومة وقصص أخرى، دار خطوط للنشر والتوزيع، عمّان، ٢٠٢٣م.

في أزقة ضيقة، وبين بيوت من صفيح وزينكو، تولد الحكايات كما يولد الخبز الساخن من رحم النار. هذه المجموعة ليست مجرد قصص عن الطحين والفلافل والحليب و... ، ولا عن خيام تحولت إلى براكيات، بل عن شعب يعيش، يضحك، ويأكل، ويحلم... رغم كل شيء.

وبين صفوف المؤن وعيون الأطفال، تتشكل ذاكرة المكان، وكرامة لا تنكسر. هذه القصص تكتب المخيم.. لا كألم، بل كحياة لا تزال تختمر على نار هادئة.

من المقدمة

دار الخليج للنشر والتوزيع

فهرس

مفتتح	7
المفتاح لا يفتح هنا	9
النهر الخشبي	11
بطاقة الجوع	13
حكايات الدُوم	15
عيد البُقَج	17
بِرْكَة الغُولَة	19
رائحة البؤس	21
حَنَفيات الغَضب	23
حين احترق قلب المخيم	25
طابور الحَليب	29
على باب الطحين	33
رائحة المخيم	37
طوبة ناقصة في السور	41
عربة الكاز	43
خيمة رقم ١١	45
المفتاح	47
الزفتة السوداء	51
خزان الماء على السطح	55
أرجوحة من حبل الغسيل	59
حبل الغسيل لا يسقط	61

دفتر الرسم المجعّد	63
الكوفيّة على مرآة التكسي	67
صحن العدس البارد	71
البطانية المرقّعة	73
المشط ذو الأسنان المكسورة	75
الصُوبة ذات الفتيل	79
برّاد الشاي المحروق	83
باب لا يُغلق إلّا بحجر	85
مروحة السقف لا تدور	87
رغيف الخبز الساخن	89
لعبة تحت الدرج	93
حذاء عالق في الطين	95
علبة سردين واحدة	99
العتمة التي حفطنا وجوهها	103
شباك يُطلّ على حيط	105
ورقة ناقصة من الحكاية	107
وحل الطفولة	109
لوكس أبو شنبر	111
اللامظة	113
رسالة من الخارج لا تصل	115
بقايا مولوتوف	117